الفصل الرابع

منتخبات من آثار أبي الفرج الأصبهانى

١ ـ أبو الفرج الأصبهانى الشاعر

ا ـ الشاعر الوجدانى :

حكاية حال

انحدر أبو الفرج يوماً إلى البصرة وكان غريباً لا يعرف أحداً من أهلها إلا من قد سمع بذكره فاستأجر بيتاً فى خان ثم لما خرج من البصرة كتب هذه الأبيات على حائط البيت الذى يسكنه(١) .

الحمدُ للهِ على ما أرى ... من صنعتِي من بين هذا الوَرى
أصارنِي الدهر إلى حالة ... يعدَمُ فيها الضّيفُ عندِي القِرى(٢)
بدّلتُ من بعد الغنى حاجةً ... إلى كلاب يلبَسون الفِرا
أصبحَ أدْمُ السوقِ لى مأكلاً ... وصار خبزُ البيتِ خبزَ الشّرا
وبعد مِلْكي منزلاً مبهجًا ... سكنتُ بيتًا من بيوتِ الكِرى(٣)
فكيف ألفَى لاهيًا ضاحكًا ... وكيف أحظَى بلذيذِ الكَرى
سبحانَ من يعلم ما خلفنا ... وبين أيدينا وتحتَ الثَّرى
والحمد للهِ على ما أرى ... وانقطعَ الخطْبُ وزالَ المِرا (٤)

---

(١) تجد ما نروى عنه من الشعر فى « معجم الأدباء » . ج١٣ و« الأغانى » ج ١
(٢) القرى : طعام الضيف .
(٣) الكرى : بكسر الكاف الإيجار وبفتحها : النوم .
(٤) المرا : مقصور المراء : وهو الجدل والنزاع .

ب — الشاعر الوصاف

رثاء ديك

رثى أبو الفرج الأصبهانى ديكاً رباه فى منزله ، فنجد فى هذا الرثاء شاعراً عينه شديدة الانتباه فى المعاينة ، وفكره بعيد التعمق ، يعرف كيف يصور وكيف ينظر إلى الأشياء . صور ألوان الديك ومشيته وبعض أقسامه وصوته وطيرانه فالصورة تكاد تكون كاملة ، اشتركت فى تكميلها عين أبى الفرج وأذنه وفمه ، اشتملت هذه الصورة على كثير من التنسيق والترتيب ، فلم تدخل صورة الديك بعضها فى بعض ، كما اشتملت لغتها على الوضوح والألفاظ الناطقة والصفات المحسوسة والتشبيهات الخصبة .

لهفى عليك أبا النـذير لوَ انَّه ... دفع المنايا عنك لَهـْفُ شفيق
وعلى شمائلك اللواتى ما سمت ... حتى ذَوَتْ من بعد حسن سُموقِ (١)
لما بَقِعتَ وصرت عِلْقَ مَضَنَّةٍ ... ونشأتَ نشْأ المقبل الموموقِ (٢)
وتكاملت جملُ الجمال بأسرها ... لك من جليل واضح ودقيق
وكسيتَ كالطاووس ريشاً لامعاً ... متلألئاً ذا رونق وبـريق
من حُمْرةٍ فى صُفرةٍ فى خُضْرةٍ ... تخييلُها يغنى عـن التحقيق
عَرَضٌ يجلّ عن القياس وجوهرٌ ... لطُفت معـانيه عن التدقيق
وخطرت ملتحفاً بِبُرْدٍ حَبَّرتْ ... منه بديع الوشى كفٌّ أنيق (٣)
كالجُلَّنَّـارةِ أو صـفاء عقيقة ... أو لمع نار أو وميض بروقِ (٤)
أو قهـوة تختـالُ فى بلورة ... بتألق الترويق والتصـفيقِ (٥)

---

(١) سمق النبات : علا وطال .
(٢) بقع من باب خرج بقعاً وهو فى الطير سواد وبياض . العلق : النفيس . مضنة : يضن به . الموموق : المحبوب .
(٣) التحبير : التحسين .
(٤) الجلنار : زهر الرمان . العقيق : خرز أحمر .
(٥) القهوة : الخمر .

وكأنّ سالفتيك تبْر سائل ... وعلى المفارق منك تاجُ عقيق (١)
وكأنّ مجرى الصوت منك إذا نَبتْ ... وجفت عن الأسماع بُحُّ حلوقِ
نايٌ دقيقٌ ناعمٌ قرنتْ به ... نغم مؤلفةٌ من الموسيقي
يزقو ويصفق بالجناح كمنتشٍ ... وصلت يداه النّقر بالتصفيق (٢)
ويميس ممتطيًا لسبع دجائج ... مثل المهارى أحدقت بفنيقِ (٣)
فيميرنا منهنّ بَيْضًا دائمًا ... رزقًا هنيئًا ليس بالممحوقِ
فيه بدائع صنعةٍ ولطائفٍ ... أتقنّ بالتهذيب والتدقيق
خَلقان مائيّانِ ما اختلطا على ... شكل ومؤتلف المزاج دقيق
صُنْع يدلّ على حقيقة صانع ... للخلقِ طرًّا ليس بالمخلوقِ
فبياضها ورق وتبرٌ مُحّها ... فى حُقّ عاج بُطّنت بدبيقِ (٤)
يغدو علينا مَنْ طهاه بعُجْبه ... ويروح بالمشويّ والمسلوق
نعم لعمرك لو تدوم هنيئة ... هل دام رزق لامرئ مرزوقِ
أبكى إذا أبصرتُ ربعك موحشًا ... بتحنّن وتأسّف وشهيق
ويزيدنى جَزَعًا لفقدك صادح ... فى منزلٍ دانٍ إلىّ لصيقِ
قرع الفؤاد وقد زقا فكأنه ... نادَى ببين أو نعىّ شقيقِ
فتأسّنى أبدًا عليك مواصل ... بسواد ليل أو بياض شروقِ
وإذا أفاق ذوو المصائب سَلْوة ... وتصبّروا أمسيتُ غيرَ مفيقِ
صبرًا لفقدك لا قِلًى لك بل كما ... صبر الأسيرُ لشدّةٍ ومضيقِ (٥)
لا تبعُدنّ وإن نأت بك نيّة ... فى منزل نائى المحلِّ سحيقِ (٦)

(١) السالفة : مقدم العنق . (٢) زقا يزقو : صاح .
(٣) المهارى: إبل منسوبة إلى مهرة بن حيدان . الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذى ولا يركب .
(٤) الورق : الدراهم المضروبة وكنى به هنا عن الفضة . المح : صفرة البيض .
دبيق : من دبيق ، بلدة بمصر تنسب إليها الثياب .
(٥) القلى : البغض . (٦) النية : الوجه الذى يذهب فيه .

وصف الفأر والهر

لم يعن أبو الفرج بمراقبة الناس وحدهم وتتبع أخبارهم ، وإنما عنى بمراقبة الحيوان أيضاً ، ولا سيما الحيوان الذى كان يعيش فى داره ، فهو يصف هذا الحيوان وصفاً إذا جاء فى عصرنا هذا مصور ووقف عليه استطاع أن يعيد صورته بريشته ، وهذه براعة أبى الفرج الأصبهانى فى دقة التصوير .

يا لَحدْبِ الظهورِ قُصْعِ الرِّقابِ ... لدِقاقِ الأنيابِ والأذنابِ

خلقتْ للفسادِ مذ خلق الخلْـ ... ـق وللعيثِ والأذى والخرابِ

ناقبات فى الأرضِ والسَّقفِ والحيـ ... ـطان نقبًا أعيا على النقَّابِ

آكلات كلَّ المآكل لا تأ ... منْهَا شاربات كل الشرابِ

آلفات قرض الثياب وقد يعـ ... ـدل قرضَ القلوب قرضُ الثيابِ

زال همّى منهنّ أزرقُ تركيٌّ ... السبالين أنمرُ الجلبابِ

ليث غابٍ خلْقًا وخُلْقًا فمن لا ... ح لعينيه خاله ليثَ غابِ

ناصب طرفَه إزاء الزوايا ... و إزاء السقوف والأبوابِ

ينتضى الظفر حين يظفر للصيْـ ... ـد وإلا فظفره فى قرابِ

لا يرى أخبثيه عين ولا يعـ ... ـلم ما جُنَّتاه غير الترابِ

قرطقوه وشنَّفوه وحلَّو ... ه أخيرًا وأوّلاً بالخضابِ

فهو طورًا يمشى بحلى عروسٍ ... وهو طورًا يخطو على عُنَّابِ

حبذا ذاك صاحبًا هو فى الصحـ ... ـبة أوفى من أكثر الأصحابِ

ج – الشاعر المداح

ميلاد المشترى

رزق المهلبي مولوداً من سرية رومية فقال أبو الفرج يهنئه :

أسعدْ بمولودٍ أتاكَ مباركًا … كالبدرِ أشرقَ جنحَ ليل مقمرِ
سعدٌ لوقتِ سعادةٍ جاءت به … أمٌّ حصانٌ من بناتِ الأصفر (١)
متبحبحٌ فى ذروتىْ شرفِ العلا … بين المهلّب منتماهُ وقيصرِ
شمسِ الضُّحَى قرنتْ إلى بدرِ الدُّجى … حتّى إذا اجتمعا أتتْ بالمشترى (٢)

عيد الفطر

وفى عيد من الأعياد يهنئ أبو الفرج الوزير المهلبي وينشده هذه القصيدة :

إذا ما علا فى الصدرِ والنهيِ والأمرِ … وشبَّهما فى النَّفع منه وفى الضّرّ
وأجرى ظُبَا أقلامهِ وتدفَّقتْ … بديهتهُ كالمستمدِّ من البحرِ
رأيتَ نظامَ الدرِّ فى نظمِ قولهِ … ومنثورَه الرقراقَ فى ذلك النثرِ
ويقتضبُ المعنى الكثيرَ بلفظةٍ … ويأتى بما تحوى الطواميرُ فى سطرِ (٣)
أيا غرَّةَ الدّهرِ ائتنفْ غرّةَ الشهرِ … وقابلْ هلالَ الفطرِ فى ليلة الفطرِ
بأيمن إقبالٍ وأسعدِ طائرٍ … وأفضلِ ما ترجوه من أفسحِ العمرِ
مضى عنكَ شهرُ الصّوم يشهدُ صادقًا … بطهركَ فيه واجتنابكَ للوزْرِ
فأكرمْ بما خطَّ الحفيظان (٤) منهما … وأثنى به المثْنى وأطرى به المُطرى
وزكّتكَ أوراقُ المصاحف وانتهى … إلى الله منها طولُ درسكَ والذكرِ
وقبضُكَ كفَّ البطشِ عن كل مجرمٍ … وبطشُكَها بالعرفِ والخيرِ والبرِّ

(١) حصان : عفيفة . بنات الأصفر : بنات الروم .
(٢) المشترى : كوكب .
(٣) الطوامير : الصحائف .
(٤) الحفيظان : الملكان .

وقد جاءَ شوّالٌ فشالتْ نعامةُ الـ صّيامِ وأُبْدِلنا التّنعمَ من الضُّرِّ (١)
وضجّتْ حبيس الدّنّ من طولِ حبسها ولامتْ على طولِ التجنّبِ والهجرِ
وأبرزَها من قعرِ أسودَ مظلمٍ كإشراقِ بدرٍ مشرقُ اللونِ كالبدرِ
إذا ضمّها والوردَ فُوهُ وكفُّهُ فلا فرقَ بين اللونِ والطعمِ والنّشرِ
وتحسبُه إذ سلسلَ الكأسَ ناظماً على الكوكبِ الدُّرِّيّ سِمْطاً من الدُّرِّ

د ـــ الشاعر الهجاء

يا أرض ميدى

لما ولى الوزارة أبو عبد الله البريدى فى زمن الراضى بالله قال أبو الفرج فى ذلك قصيدة طويلة يهجو فيها أبا عبد الله وهذا مطلعها :

ياسماء اسْقطى ويا أرضُ ميدى قد تولّى الوزارةَ ابنُ البريدى (٢)
جلَّ خطبٌ وحلَّ أمرٌ عضالٌ وبلاءٌ أشابَ رأسَ الوليدِ
هُدَّ ركنُ الإسلامِ وانهتكَ الملـ ـكُ ومُحِيَتْ آثاره فهْو مُودى (٣)
أخلقتْ بهجةُ الزّمانِ كما أنْـ ـهجَ طولُ اللباسِ وشيَ البُرودِ (٤)

أنا الملوم

وله فى الهجاء هذان البيتان قالها فى أبى محمد المهلبى مع ما كان يختصه به من جميل الرعاية والإكرام :

أبعينِ مفتقرٍ إليكَ رأيتنى بعد الغِنى فرميتَ بى من حالقِ (٥)
لستَ الملومَ أنا الملومُ لأننى أمّلتُ للإحسانِ غيرَ الخالقِ (٦)

(١) شالت نعامة الرجل : مات . (٢) ميدى : اضطرابى وميلى .
(٣) يستقيم وزن الشطر الثانى بإسكان الحاء من محيت . مودى : هالك .
(٤) أخلق وأنهج : بلى وأبلى . (٥) الحالق المكان المرتفع .
(٦) وفى رواية أخرى ، أنزلت حاجاتى بغير الخالق .

خيبة

لما كان أبو الفرج كاتباً لركن الدولة حظياً عنده توقع أن يكرمه الرئيس أبو الفضل بن العميد ويبجله فخاب ظنه فقال يهجوه :

مـالُك موفورٌ فما باله ... أكسبكَ التيهَ على المعدمِ (١)
ولمْ إذا جئتَ نهضنا وإن ... جئنا تطاولتَ ولم تتممِ
وإن خرجنا لم تقلْ مثل ما ... نقولُ قدِّم طِرْفه قدِّمِ (٢)
إن كنتَ ذا علمٍ فمن ذا الذى ... مثل الذى تعلمُ لم يعلمِ
ولستَ فى الغاربِ من دولةٍ ... ونحن من دونك فى المَنْسِمِ (٣)
وقد وَلينا وعُزلنا كما ... أنت فلم نصغُرْ ولم نعظمِ
تكافأت أحوالنا كلها ... فصلْ على الإنصاف أو فاصْرِمِ (٤)

---

(١) المعدم : الفقير .
(٢) الطرف : الجواد .
(٣) الغارب : الكاهل وأعلى كل شيء ومنه غوارب الماء أى أعالى موجه . والمنسم للإبل هو كالظفر للإنسان أو هو طرف خف البعير والنعامة والفيل ونحوها .
(٤) اصرم : اقطع واهجر .

٢ ـ أبو الفرج الأصبهانى الناثر

١ ـ المؤرخ

إسلام جبلة بن الأيهم

تتنازع فى هذا النص فكرتان : فكرة حرية الدين وفكرة عز الملك ، خليفة يرى أن ملكاً من ملوك آل جفنة هشم أنف رجل من المسلمين فى موسم الحج فلا يستطيع الإغضاء على هذا الأمر ، لأن الإسلام جمع الملوك والسوقة ، وملك يرى أن رجلاً من السوقة تعمد حل إزاره أمام أصحابه والمسلمين فلا يستطيع السكوت عن هذه الإهانة ، وكل فكرة تدل على مقدار تعلق صاحبها بالدفاع عنها :

لما أسلمَ جبلةُ بن الأيهم الغسَّانى ، وكان من ملوك آل جفنة ، كتب إلى عمر رضى الله عنه يستأذنه فى القدوم عليه ، فأذن له عمر ، فخرج إليه فى خمسمائة من أهل بيته من عكّ وغسَّان ، حتى إذا كان على مرحلتين كتب إلى عمر يعلمه بقدومه ، فسرَّ عمر رضوان الله عليه ، وأمر الناس باستقباله ، وبعث إليه بأنزال[1] وأمر جبلة مائتى رجل من أصحابه فلبسوا السلاحَ والحديد وركبوا الخيول معقودةً أذنابها ، وألبسوها قلائد الذهب والفضة ، ولبس جبلة تاجه ، وفيه قُرطًا مارية ، وهى جدّته ، ودخل المدينة فلم يبق بها بكر ولا عانس[2] ، إلا تبرَّجت وخرجت تنظر إليه وإلى زيِّه ، فلما انتهى إلى عمر رحَّب به وألطفه[3] وأدنى مجلسه . ثم أراد عمر الحجّ فخرج معه جبلة ، فبينما هو يطوف بالبيت ، وكان مشهوداً بالموسم ، إذ وطئ إزاره رجلٌ من بنى فزارة فانحلّ ، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزارى ، فاستعدى[4] عليه عمر رضوان الله عليه ، فبعث إلى جبلة فأتاه ، فقال : ما هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ،

---

(١) الأنزال : جمع نزل وهو ما هيئ للضيف أن ينزل عليه .

(٢) عنست الجارية : طال مكثها فى أهلها بعد إدراكها حتى خرجت من عداد الأبكار ولم تتزوج .

(٣) ألطفه بكذا : بره .

(٤) استعداه : استغاثه واستعانه واستنصره .

إنه تعمّد حل إزارى ، ولولا حرمةُ الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف ، فقال له عمر : قد أقررت ، فإمّا أن ترضى الرجل وإمّا أن أُقيده[١] منك . قال جبلة : ماذا تصنع بى ؟ قال : آمر بهشم أنفك كما فعلت ، قال : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ؟ ! قال : إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشىء إلا بالتقى والعافية . قال جبلة : قد ظننتُ يا أمير المؤمنين أنى أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية ، قال عمر : دع عنك هذا ، فإنك إن لم ترض الرجل أقدته منك ، قال : إذًا أتنصّر ، قال : إن تنصّرت ضربت عنقك ، لأنك قد أسلمت ، فإن ارتددت قتلتك . فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال : أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه . وقد اجتمع بباب عمر من حىّ هذا وحىّ هذا خلقٌ كثير ، حتى كادت تكون بينهم فتنة . فلما أمسوا أذن له عمر فى الانصراف ، حتى إذا نام الناس وهدؤوا حمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام ، فأصبحت مكة وهى منهم بلاقع[٢] ، فلما انتهى إلى الشام تحمل فى خمسمائة رجل من قومه ، حتى أتى القسطنطينية فدخل إلى هرقل فتنصّر هو وقومه ، فسرّ هرقل بذلك جدًّا ، وظنّ أنه فتح من الفتوح عظيم وأقطعه حيث شاء ، وأجرى عليه من النزُل ما شاء ، وجعله من محدّثيه وسمّاره[٣] .

---

(١) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .
(٢) البلاقع : جمع البلقع وهو الأرض القفر .
(٣) « الأغانى » ج ١٤ ص ٤ .

عيسى بن زيد فى خشونة حياته

لو نطق كلام من ذات نفسه لنطق الكلام الذى اشتمل عليه هذا الخبر . إن عيسى بن زيد بن على من الطالبيين الذين خافوا السلطان وهربوا منه . فوصف أبو الفرج الأصبهانى فى هذه القطعة هيئته وتقواه وعيشته وصفاً نكاد نرى فيه عيسى بن زيد نفسه يذعر من ابن أخيه كما يذعر الوحش . فلو صور الصبر على خشونة الحياة لكان عيسى بن زيد صورته .

حدّثنا أحمد بن محمد بن سعيد ، على سبيل المذاكرة فحفظته عنه ، لم أكتبه من لفظه ، والحديث يزيد وينقص والمعنى واحد ، قال : حدّثنى محمد ابن المنصور المرادى قال : قال يحيى بن الحسين بن زيد :

قلت لأبى : يا أبه ، إنى أشتهى أن أرى عمى عيسى بن زيد ، فإنه يقبح بمثلى أن لا يلقى مثله من أشياخه ، فدافعنى عن ذلك مدة وقال : إن هذا أمر يثقل علىه ، وأخشى أن ينتقل عن منزله كراهية للقائك إيّاه فتزعجه ، فلم أزل به أداريه وألطف به حتى طابت نفسه لى بذلك ، فجهّزنى إلى الكوفة ، وقال لى : إذا صرت إليها فاسأل عن دور بنى حىّ ، فإذا دللت عليها فاقصدها فى السكة الفلانية وسرّى فى وسط السكة دارًا لها باب صفته كذا وكذا ، فاعرفه واجلس بعيدًا منها فى أول السكة ، فإنه سيقبل عليك عند المغرب كهل طويل مسنون الوجه ، قد أثّر السجود فى جبهته ، عليه جبة صوف ، يستقى الماء على جمل وقد انصرف يسوق الجمل لا يضع قدمًا ولا يرفعها إلا ذكر الله — عزّ وجل — ودموعه تنحدر ، فقم وسلم عليه وعانقه فإنه ، سيذعر منك كما يذعر الوحش فعرفه نفسك وانتسب له ، فإنه يسكن إليك ويحدثك طويلاً ، ويسألك عنّا جميعًا ، ويخبرك بشأنه ، ولا يضجر بجلوسك معه ، ولا تطل عليه وودعه ؛ فإنه سوف يستعفيك من العودة إليه ، فافعل ما يأمرك به من ذلك ، فإنك إن عدت إليه توارى عنك ، واستوحش منك وانتقل من موضعه ، وعليه فى ذلك مشقّة .

فقلت : أفعل كما أمرتنى . ثم جهّزنى إلى الكوفة ، ودعته وخرجت ، فلما

وردت الكوفة قصدت سكة بنى حىّ بعد العصر ، فجلست خارجها بعد أن تعرفت الباب الذى نعته لى ، فلما غربت الشمس إذا أنا به يسوق الجمل ، وهو كما وصف لى أبى ، لا يرفع قدمًا ولا يضعها إلا حرّك شفتيه بذكر الله ، ودموعه تترقرق فى عينيه وتذرف أحيانًا ، فقمت فعانقته ، فذعر منى كما يذعر الوحش من الإنس ، فقلت : يا عمّ ! أنا يحيى بن الحسين ابن زيد بن أخيك ، فضمنى إليه وبكى ، حتى قلت قد جاءت نفسه ثم أناخ جمله ، وجلس معى ، فجعل يسألنى عن أهله رجلاً رجلاً ، وامرأةً امرأةً ، وصبيًّا صبيًّا ، وأنا أشرح له أخبارهم وهو يبكى ، ثم قال : يا بنىّ أنا أستقى على هذا الجمل الماء ، فأصرف ما أكتسب ، يعنى من أجرة الجمل ، إلى صاحبه ، وأتقوّت باقيه ، وربما عاقنى عائق عن استقاء الماء فأخرج إلى البريّة ، يعنى بظهر الكوفة ، فألتقط ما يرمى الناس به من البقول فأتقوّته .

وقد تزوجت إلى هذا الرجل ابنته ، وهو لا يعلم مَنْ أنا إلى وقتى هذا ، فولدت منى بنتًا ، فنشأت وبلغتْ ، وهى أيضًا لا تعرفنى ، ولا تدرى من أنا ، فقالت لى أمها : زوّج ابنتك بابن فلان السقاء — لرجل من جيراننا يسقى الماء — فإنه أيسر منا وقد خطبها ، وألحت علىّ ، فلم أقدر على إخبارها بأن ذلك غير جائز ، ولا هو بكفء لها ، فيشيع خبرى ، فجعلت تلحّ على فلم أزل أستكفى الله أمدها حتى ماتت بعد أيام ، فما أجدنى آسى على شىء من الدنيا أسای على أنها ماتت ولم تعلم بموضعها من رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال : ثم أقسم على أن أنصرف ولا أعود إليه وودعنى .

فلما كان بعد ذلك صرت إلى الموضع الذى انتظرته فيه لأراه فلم أره ، وكان آخر عهدى به[1] .

---

(١) « مقاتل الطالبيين » الصفحات ٤٠٨ — ٤١٠ .

الحسين صاحب فخ

ليس المؤرخ هو الذي يذكر الحوادث ويسرد الأخبار فالمؤرخ الحق يعنى إلى هذا برسم أشخاصه وإبراز الجوانب المأثورة عنهم ليكمل بها إطار التاريخ . وهكذا فعل أبو الفرج ، وفيما اخترناه من أخبار الحسين صاحب فخ ومحمد بن صالح شاهد عدل :

١

. . . حدثني الحسن بن هذيل قال :

قال لي الحسين صاحب فخ : اقترض لي أربعة آلاف درهم ، فذهبت إلى صديق فأعطاني ألفين وقال لي : إذا كان غد فتعال حتى أعطيك ألفين ، فجئت فوضعتها تحت حصير كان يصلي عليه ، فلما كان من الغد أخذت الألفين الأخريين ثم جئت أطلب الذي وضعته تحت الحصير فلم أجده فقلت له : يا بن رسول الله ، ما فعل الألفان ؟ قال : لا تسأل عنهما ، فأعدت فقال تبغني رجل أصفر من أهل المدينة فقلت : ألك حاجة ؟ فقال : لا ولكني أحببت أن أصل جناحك فأعطيته إياها . أما إني أحسبني ما أجرت على ذلك لأني لم أجد لها حبًّا وقال عزّ وجلّ : « لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون »[1] .

٢

. . . حدثني كردي بن يحيى عن الحسن بن هذيل قال :

كنت أصحب الحسين بن عليّ صاحب فخ فقدم إلى بغداد فباع ضيعة له بتسعة آلاف دينار ، فخرجنا فنزلنا سوق أسد ، فبسط لنا على باب الخان ، فأتى رجل معه سلة فقال له : مر الغلام يأخذ مني هذه السلة ، فقال

(١) سورة آل عمران ٩٢ .

له : وما أنت ؟ قال : أصنع الطعام الطيب ، فإذا نزل هذه القرية رجل من أهل المروءة أهديته إليه . قال : يا غلام خذ السلة منه ، وعد إلينا لتأخذ سلتك . قال : ثم أقبل علينا رجل عليه ثياب رثة فقال : أعطوني مما رزقكم الله ، فقال لى الحسين : ادفع إليه السلة ، وقال له : خذ ما فيها وردّ الإناء . ثم أقبل علىّ وقال : إذا ردّ السائل السلة فادفع إليه خمسين دينارًا ، وإذا جاء صاحب السلة فادفع إليه مائة دينار ، فقلت إبقاءً منى عليه : جعلت فداك ، بعت عينًا لك لتقضى دينًا عليك فسألك سائل فأعطيته طعامًا ، وهو مقنع له ، فلم ترض حتى أمرت له بخمسين دينارًا ، وجاءك رجل بطعام لعله يقدر فيه دينارًا أو دينارين ، فأمرت له بمائة دينار ، فقال : يا حسن إن لنا ربًا يعرف الحسنات ، إذا جاء السائل فادفع له مائة دينار وإذا جاء صاحب السلة فادفع له مائتى دينار ، والذى نفسى بيده إنى لأخاف أن لا يقبل منى ، لأن الذهب والفضة والتراب عندى بمنزلة واحدة .

٣

. . . حدثنى حمدون القرا قال :

ركب الحسين بن علىّ صاحب فخ دين كثير فقال لغرمائه : الحقونى إلى باب المهدى ، وخرج فجاء إلى باب المهدى فقال لآذنه : ابن عمك الينبعى على الباب ، قال : وكان راكبًا على جمل ، فقال له : ويلك ، أدخله على جمله ، فأدخله حتى أناخه فى وسط الدار ، فوثب المهدى فسلم عليه وعانقه وأجلسه إلى جنبه ، وجعل يسأله عن أهله ، ثم قال : يابن عم ، ما جاء بك ؟ قال : ما جئت ووراثى أحد يعطينى درهمًا ، فقال أفلا كتبت إلينا ، قال : أحببت أن أحدث بك عهدًا . فدعا المهدى ببدرة دنانير و بدرة من دراهم وتخت من ثياب حتى دعا له بعشر بدر دنانير وعشر بدر دراهم وعشرة تخوت فدفعها إليه ، وخرج فطرح ذلك فى دار ببغداد ، وجاء غرماؤه

فكان يقول للواحد: كم لك علينا؟ فيقول: كذا وكذا، فيزن له، ثم يدخل يده فى تلك الدراهم والدنانير فيقول: هذا صلة منا لك، فلم يزل حتى لم يبق من ذلك المال إلاّ شيء يسير؛ ثم انحدر إلى الكوفة يريد المدينة فنزل قصر ابن هبيرة فى خان، فقيل لصاحب الخان: هذا رجل من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله، فأخذ له سمكًا فشواه وجاء به، ومعه رقاق وقال له: لم أعرفك يابن رسول الله، فقال لغلامه. كم بقى معك من ذلك المال؟ قال: شيء يسير والطريق بعيد، قال: ادفعه إليه، فدفعه إليه[1].

محمد بن صالح

... حدثنى إبراهيم بن المدبر قال:

جاء محمد بن صالح الحسينى وسألنى أن أخطب عليه بنت عيسى بن موسى بن أبى خالد الحرنى أو قال أخته، شك ابن مهرويه، ففعلت ذلك، وصرت إلى عيسى فسألته أن يجيبه، فأبى وقال لى: لا أكذبك والله، إنى أودّه لأنى لا أعرف أشرف وأشهر منه لمن يصاهره، ولكنى أخاف المتوكل وولده بعده على نعمتى ونفسى، فرجعت إليه فأخبرته بذلك، فأضرب عنه مدة، ثم عاودنى بعد ذلك وسألنى معاودته فعاودته، ورفقت به حتى أجاب وزوّجه، فأنشدنى محمد بعد ذلك لنفسه:

خطبت إلى عيسى بن موسى فردّنى ... فلله والى مـرّة وعتيقهـا
لقـد ردنى عيسى ويعلم أننى ... سـليل بنات المصطفى وعريقها
فلمـا أبى بخلاً بهـا وتمنعًا ... وصيّرنى ذا خـلة لا أطيقها
تداركنى المرء الذى لم يزل له ... من المكرمات رحبهـا وطريقها
سمىّ خليـل الله وابن وليـه ... وحمـال أعباء العـلا ومطيقها

(١) «مقاتل الطالبيين» ٤٣٨ – ٤٤٢.

فزوجنى والمن عنــدى لغــيره فيــا بيعة وفتىً الربح سوقهـــا
ويا نعمـــة لابن المدبر عنــدنا يجدُّ على كــر الزمان أنيقها

قال ابن مهرويه : قال ابن المدبر : وكان اسم المرأة حمدونة . فلما نقلت إليه ، وكانت امرأة جميلة عاقلة كاملة من النساء ، أنشدنى لنفسه فيها قوله :

لعمـــر حمـــدونة إنى بها لمغرم القلب طويل السقامْ
مجاوز للقـــدر فى حبهـــا مباين فيهـــا لأهل الملامْ
مطّرح للعذل ماض على مخافة النفس وهول المقـــامْ
مشايعى قلب يعاف الخنا ومحارم يقطع صمَّ العظامْ
جشمنى ذلك وجدى بها وفضلها بين النساء الوسامْ
ممكورة الســـاق ردينيـــة مع الشوى الخدل وحسن القوامْ
صامتة الحجل خفوق الحشـــا مائرة الســـاق ثقال القيامْ
ساجية الطرف نؤوم الضحى منيرة الوجـــه كبرق الغمامْ
زينّهـــا الله ومـــا شانها وأعطيت منيتهـــا من تمامْ
تلك التى لولا غـــرامى بها كنت بسامرّا قليـــل المقامْ

وقال أبو الفرج :

وقد حدثنى بخبره على أتم فى هذه الحكاية عمى الحسين بن محمد قال : حدثنا أبو جعفر بن الدهقانة النديم قال : حدثنى إبراهيم بن المدبر قال : جاءنى يومًا محمد بن صالح الحسنى بعد أن أطلق من الحبس فقال لى : إنى أريد المقام عندك على خلوة لأبثك من أمرى شيئًا لا يصلح أن يسمعه أحد غيرنا ، فقلت : أفعل . فصرفت من كان بحضرتى وخلوت معه وأمرت بردّ دابته . فلما اطمأن وأكلنا واضطجعنا قال لى : أعلمك أنى خرجت فى سنة

كذا وكذا ومعى أصحابى على القافلة الفلانية، فقاتلنا من كان فيها فهزمناهم وملكنا القافلة ، فبينا أنا أحوزها وأنيخ الجمال ، إذ طلعت علىّ امرأة من عمارية ما رأيت قط أحسن منها وجهًا ولا أحلى منطقًا ، فقالت لى : يا فتى ، إن رأيت أن تدعو الشريف المتولى أمر الجيش ، فإن له عندى حاجة .

فقلت : قد رأيته وسمع كلامك .

فقالت لى : سألتك بالله و بحق رسوله أنت هو ؟

قلت : نعم والله وحق رسوله صلى الله عليه وآله إنى لهو .

فقالت : أنا حمدونة بنت عيسى بن موسى بن أبى خالد الحربى ، ولأبى محل من سلطانه ، ولنا نعمة إن كنت سمعت بها فقد كفاك ما سمعت ، وإن كنت لم تسمع بها فاسأل عنها غيرى ، ووالله لا استأثرت عليك بشىء أملكه ، ولك علىّ بذلك عهد الله جل وعز وميثاقه ، وما أسألك إلا أن تصونني وتسترنى ، وهذه ألف دينار معى لنفقتى فخذها حلالاً . وهذا حلىّ علىّ من خمسمائة دينار فخذه ، وأضمن لك بعد أخذك إياه ما شئت على حكمك ، آخذه لك من تجار مكة والمدينة ، ومن أهل الموسم العراقيين ، فليس منهم أحد يمنعنى شيئًا أطلبه . وادفع عنى واحمنى من أصحابك ومن عار يلحقنى .

فوقع قولها فى قلبى موقعًا عظيمًا فقلت لها : قد وهب الله لك مالك وجاهك وحالك ، ووهبت لك القافلة بجميع ما فيها ، ثم خرجت فناديت فى أصحابى فاجتمعوا إلىّ ، فناديت فيهم إنى قد أجرت هذه القافلة وأهلها وخفرتها وحميتها وجعلت لها ذمة الله وذمة رسوله وذمتى ، فمن أخذ منها خيطًا أو مخيطًا أو عقالاً فقد آذنته بحرب . فانصرفوا معى وانصرفت ، وسار أهل القافلة سالمين .

فلما أخذت وحبست ، بينا أنا ذات يوم فى محبسى إذ جاءنى السجان فقال لى : إن بالباب امرأتين تزعمان أنهما من أهلك ، وقد حظر علىّ أن يدخل عليك أحد ، إلا أنهما قد أعطتانى دملج ذهب ، وجعلتاه لى إن أوصلتهما إليك ، وقد أذنت لهما وهما فى الدهليز ، فاخرج إليهما إن شئت .

فتنكرت من يجيئنى فى بلد غربة وفى حبس وحيث لا يعرفنى أحد ، ثم تفكرت فقلت : لعلهما من ولد أبى أو من بعض نساء أهلى ، فخرجت إليهما وإذا بصاحبتى ، فلما رأتنى بكت لما رأت من تغير خلقى وثقل حديدى ، فأقبلت عليها الأخرى فقالت : أهو هو ؟ قالت : إى والله لهو هو . ثم أقبلت علىّ فقالت : فداك أبى وأمى ، لو استطعت أن أقيك مما أنت فيه بنفسى وأهلى لفعلت ، ولكنت بذاك منى حقيقًا ، ووالله لا تركت المعاونة والسعى فى خلاصك ، وكل حيلة ومال وشفاعة ، وهذه دنانير وطيب وثياب فاستعن بها على موضعك ، ورسولى يأتيك فى كل يوم بما يصلحك حتى يفرج الله عنك . ثم أخرجت إلىّ المرأة كسوة وطيبًا ومائتى دينار ، وكان رسولها يأتينى فى كل يوم بطعام نظيف ، ويتصل برّها عند السجان فلا يمتنع من كل ما أريد ، حتى من الله بخلاصى .

ثم راسلتها فخطبتها فقالت : أما من جهتى فأنا لك سامعة مطيعة ، والأمر إلى أبى ، فأتيته فخطبتها إليه فردّنى وقال : ما كنت لأحقق عليها ما شاع فى الناس عنك من أمرها فقد صيرتنا فضيحة . فقمت من عنده منكرًا مستحيًا وقلت فى ذلك :

رمونى وإياها بشنعـــاء هم بها ... أحق أدال الله منهم فعجلا

بأمر تركناه وربّ محمـــدٍ ... عيانًا فإما عفة أو تجمـــلا

فقلت له : إن عيسى صنيعة أخى ، وهو لى مطيع ، وأنا أكفيك أمره ، فلما كان من غد لقيت عيسى فى منزله ثم قلت له : قد جئتك فى حاجة لى .

فقال : هى مقضية ؛ ولو كنت استعملت ما أحبه لأمرتنى أن أجيئك فجئتك فكان أسرّ إلىّ .

فقلت له : قد جئتك خاطبًا إليك ابنتك .

فقال : هى لك أمة ، وأنا لك عبد ، وقد أجبتك .

فقلت : إنى خطبتها على من هو خير منى أبًا وأمًّا ، وأشرف لك صهرًا ومتّصلاً : محمد بن صالح العلوى .

فقال لى : يا سيدى ، هذا رجل قد لحقنا بسببه ظنّة ، وقيلت فينا أقوال .

فقلت له : أفليست باطلة .

فقال : بلى والحمد لله .

فقلت : فكأنها لم تُقل ، وإذا وقع النكاح زال كل قول وتشنيع ، ولم أزل أرفق به حتى أجاب .

وبعثت إلى محمد بن صالح فأحضرته وما برح حتى زوجه ، وسقت الصداق عنه من مالى[1] .

يوم أوارة

كذلك يعنى المؤرخ الكفّ بالأسباب والعلل عنايته بالمسبب والمعلول ، وبهذا تقضى فلسفة التاريخ ، فراعى أبو الفرج هذه الفلسفة حين قدّم الأسباب وبنى عليها النتائج :

نسخت ذلك من كتاب عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات بخطه ، وذكر أن أحمد بن الهيثم بن الفراس أخبره به عن العمرى عن هشام بن الكلبى

---

(١) « مقاتل الطالبيين » ص ٦٠٣ – ٦٠٨ و « الأغانى » ج ١٥ ص ٨٦ – ٨٨

عن أبيه وغيره من أشياخ طيئ قال : وحدثنى محمد بن أبى السرى عن هشام ابن الكلبى قالوا :

كان من حديث يوم أوارة ، أن عمرو بن المنذر بن ماء السماء ، وهو عمرو ابن هند ، يعرف باسم أمّه هند بنت الحرث الملك المنصور بن حجر آكل المرار الكندى ، وهو الذى يقال له مفرط الحجارة ، أنه كان عاقد هذا الحىّ من طيئ ألاّ ينازعوا ولا يفاخروا ولا يغزوا ، وأن عمرو بن هند غزا اليمامة ، فرجع منفضًّا ، فمر بطيء ، فقال له زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم الحنظلى : أبيتَ اللعن ، أصب من هذا الحى شيئًا ، قال : ويلك ، إن لهم عقدًا ، قال : وإن كان ، فلم يزل به حتى أصاب نسوة وأزوادًا . فقال فى ذلك الطائىّ ، وهو قيس ابن جروة أحد الأحيين قال :

ألا حىِّ قبلَ البَيْنِ من أنت عاشقُهْ ... ومن أنتَ مشتاقٌ إليه وشائقُهْ
ومن لا تواتى دارَهُ غـير فينةٍ ... ومن أنت تبكى كلَّ يومٍ تفارقُهْ
وتعـدو بصحراءِ الشويَّة ناتَى ... كعَدْوِ النحوصِ قدأنيخت نواهقُهْ
إلى الملكِ الخيْرِ ابْنِ هند تزوره ... وليس من الفوْت الذى هو سابقُهْ
وإنَّ نســاءً هنّ ما قال قائلٌ ... غنيمة ســوءٍ بينهنّ مهارقُهْ
ولو نيلَ فى عهدٍ لنا لحمُ أرنبٍ ... رددنا وهذا العهدُ أنت معالقُهْ
فَهَبْكَ ابن هندٍ لم تعقلَ أمانةً ... ومــا المرء إلا عقدُهُ ومواثقُهْ
وكنّا أناسًا حافظين بنعمــةٍ ... يسيل بنــا تلع الملا وأبارقُهْ
فأقسمت لا أحتــلّ إلا بصهوةٍ ... حــرام علىّ رملهُ وشــقائقُهْ
وأقسمت جهدًا بالمنازل من منًى ... وما خبَّ فى بطحائهنّ درادقُهْ
لئن لم تغيّرْ بعض ما قد فعلتمــو ... لأنتحينَّ العظمَ ذو أنت عارقُهْ

فسمى عارقًا بهذا البيت ، فبلغ هذا الشعر عمرو بن هند ، فقال زرارة بن عدس : أبيت اللعن ، إنه يستوعدك ، فقال عمرو بن هند لرملة بن شعاث

الطائى وهو ابن عم عارق : أيهجونى ابن عمك ويتوعّدنى؟ قال : والله ما هجاك ولكنه قد قال :

والله لو كان ابن جفنة جاركمْ ما إن كساكم غصّةً وهوانا
وسلاسلاً يبرقنَ فى أعناقكمْ وإذاً لقطّع تلكمُ الأقرانا
ولكان غارته علـى جيرانهِ ذهبًا وربطًا رادعًا وجفانا

قالوا : الرادع المصبوغ بالزعفران ، وإنما أراد ترملة أن يذهب سخيمته ، فقال : والله لأقتلنه ، فبلغ ذلك عارقًا فأنشأ يقول :

من مبلغٌ عمرو بن هندٍ رسالةً إذا استحقبتها العيس تمضى على البعد
أيوعدنى والرّمل بينى وبينه تبين رويدًا ما أمامة من هندِ
ومما أجادونى رعان كأنها قبابل خيلٍ من كميتٍ ومن وردِ
غدرتَ بأمرٍ أنت كنت اجتذيتنا عليه وشرُّ الشيمةِ الغدرُ بالعهدِ
فقد يترك الغدر الفتى وطعامه إذا هو أمسى حلبةً من دم الفصدِ

فبلغ عمرو بن هند شعره هذا ، فغزا طيئًا فأسر أسرى من طيء بن أخزم وهو رهط حاتم بن عبد الله ، فيهم رجل من الأحيين يقال له قيس بن جحدر ، وهو جد الطرماح بن حكيم ، وهو ابن خالة حاتم ، فوفد حاتم فيهم إلى عمرو ابن هند ، وكذلك كان يصنع ، فسأله إياهم فوهبهم له إلا قيس بن جحدر ، لأنه كان من الأحيين من رهط عارق فقال حاتم :

فككت عديًّا كلها من إسارها فأنعم وشفّعنى بقيس بن جحدرِ
أبوه أبى والأمهات أمهاتنا فأنعم فدتلك اليوم نفسى ومعشرى

فأطلقه . قال : وبلغنا أن المنذر بن ماء السماء وضع ابنًا له صغيرًا ، ويقال بل كان أخًا له صغيرًا ، يقال له مالك ، عند زرارة ، وأنه خرج ذات يوم يتصيد فأخفق ولم يصب شيئًا ، فرجع فمر بإبل لرجل من بنى عبد الله بن دارم ، يقال له سويد بن ربيعة بن زيد بن عبد الله بن دارم ، وكانت عند سويد ابنة

زرارة بن عدس ، فولدت له سبعة غلمة ، فأمر مالك بن المنذر بناقة سمينة منها فنحرها ثم اشتوى ، وسويد نائم ، فلما انتبه شدّ على مالك بعصا فضربه بها ، فأمّه ومات الغلام وخرج سويد هاربًا حتى لحق بمكة ، فعلم أنه لا يؤمن فحالف بنى نوفل بن عبد مناة ، واحتط بمكة ، فمن ولده أهاب بن عزيز بن قيس بن سويد، وكانت طيئ تطلب عثرات زرارة وبنى أبيه حتى بلغهم ما صنعوا بأخى الملك ، فأنشأ عمرو بن ثعلبة بن ملقط الطائى يقول :

من مبلغ عمرًا بأنّ المرء لم يخلق صباره
فحوادث الأيام لا تبقى لها إلا الحجاره
إن ابن عجزة أمه بالسفح أسفلَ من أواره
تسفى الرياحُ خلاله سحيًا وقد سلبوا إزاره
فاقتل زرارة لا أرى فى القومِ أفضلَ من زراره

فلما بلغ هذا الشعر عمرو بن هند بكى حتى فاضت عيناه ، وبلغ الخبر زرارة فهرب ، وركب عمرو بن هند فى طلبه فلم يقدر عليه ، فأخذ امرأته وهى حبلى . فقال : أذكر فى بطنك أم أنثى . قالت : لا علم لى بذلك ، قال : ما فعل زرارة الغادر الفاجر ؟ قالت : إن كان ما علمت الطيب العرق السمين المرق . ويأكل ما وجد ، ولا يسأل عما فقد ، لا ينام ليلةً بخاف ، ولا يشبع ليلةً يضاف ، فبقر بطنها ، فقال قوم زرارة لزرارة : والله ما قتلت أخاه فأت الملك ، فأصدقه الخبر ؛ فأتاه زرارة فأخبره الخبر ، فقال : جئنى بسويد ، فقال : لقد لحقَ بمكة ، قال : فعلىّ بابنيه التسعة وأمهم بنت زرارة غلمة بعضهم فوق بعض ، فأمر بقتلهم . فتناولوا أحدهم فضربوا عنقه ، وتعلق بزرارة الآخرون فتناولوهم ، فقال زرارة : يا بعضى دع بعضًا ! فذهبت مثلاً ، وقتلوا . وآلى عمرو بن هند بأليّة ليحرقن من بنى حنظلة مائة رجل ، فخرج يريدهم ، فبعث على مقدمته الطائى عمرو بن ثعلبة بن عتاب بن ملقط ، فوجدوا

القوم قد نذروا ، فأخذوا منهم ثمانية وتسعين رجلاً بأسفل أوارة من ناحية البحرين فحبسهم ، ولحقه عمرو بن هند حتى انتهى إلى أوارة ، فضربت قبته فأمر لهم بأخدود وحفر لهم ، ثم أضرمه نارًا ، فلما احتدمت وتلظت قذف بهم فيها ، فاحترقوا ، وأقبل راكب من البراجم ، وهم بطن من بنى حنظلة عند المساء ، ولا يدرى بشىء مما كان يوضع له بعيره فأناخ ، فقال له عمرو ابن هند : ما جاء بك ؟ قال حبّ الطعام ، قد أقويت ثلاثًا لم أذق طعامًا ، فلما سطع الدخان ظننته دخان طعام ، فقال له عمرو بن هند : ممن أنت ؟ قال : من البراجم ، قال عمرو : إن الشقى وافد البراجم ! فذهبت مثلاً ، ورمى به فى النار ، فهجت العرب تميمًا بذلك ، فقال ابن الصعق العامرى قوله :

ألا أبلغ لديك بنى تميم بآية مـا يحبون الطعـاما

وأقام عمرو بن هند لا يرى أحدًا ، فقيل له : أبيت اللعن لو تحللت بامرأة منهم ، فقد أحرقت تسعة وتسعين رجلاً . فدعا بامرأة من بنى حنظلة ، فقال لها : من أنت ، قالت : أنا الحمراء بنت ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل ابن دارم ، قال : إنى لأظنك أعجمية ، فقالت : ما أنا بأعجمية ولا ولدتنى العجم :

إنى لبنتُ ضمرة بن جابرِ ساد معدًّا كابرًا عن كابرِ
إنى لأختُ ضمرة بن ضمرة إذا البلاد لفّعتْ بجمرةِ

قال عمرو : أما والله لولا مخافة أن تلدى مثلك لصرفتك عن النار . قالت : أما والذى أسأله أن يضع وسادك ، ويخفض عمادك ، ويسلبك ملكك ، ما قتلت إلا نساء أعاليها ثدىّ ، وأسافلها دمى ، قال : اقذفوها فى النار ، فالتفتت فقالت : ألا فتى يكون مكان عجوز ؟ فلما أبطأوا عليها قالت : صارت الفتيان حممًا ! فذهبت مثلاً ، فأحرقت ، وكان زوجها يقال له حوذة بن جرول ، ابن نهشل ابن دارم ، فقال لقيط بن زرارة يعير بنى مالك بن حنظلة فى أخذ من أخذ منهم الملك وقتله إياهم ونزولهم معه :

لمن دمنةٌ أقفرتْ بالجنـاب | إلى السفح بين الملا بالهضاب
بكيتَ لعـرفانِ آياتهـا | وهاجَ لكَ الشوقَ نَعْبُ الغراب
فأبلغْ لديك بنى مـالكٍ | مغلغـلةً وسراة الرباب
وإن امرَأً أنتمـو حوله | تحفّـون قبّته بالقبـاب
يهينُ سـراتكمو عامـداً | ويقتلكم مثل قتل الكلاب
فلو كنتمو إبلاً أملحتْ | لقد كرعت للمياهِ العِذاب
ولكنكم غنمٌ تصـطفى | ويترك سـائرها للذّباب
لعمرُ أبيك إلى الخير مـا | أردت بقتلهم من صواب
ولا نعمـة إن خيرَ الملو | ك أفضلهم نعمة فى الرقاب[1]

السيف الكريم

أخبرنى أحمد بن عبد العزيز الجوهرى قال : حدّثنا على بن محمد النوفلى قال : حدّثنا أبى قال : حدّثنا الحسن بن محمد بن عبد الله بن حسن بن على قال : جاء أعرابى إلى أبى ، وهو مستتر بسُوَيْقَة[2] قبل مخرجه ، ومعه سيف قد علاه الصدأ فقال : يابن رسول الله ، إنى كنت ببطن قُدَيْد[3] أرعى إبلى وفيها فحلٌ قَطِم[4] قد كنت ضربته فحقد علىّ وأنا لا أدرى ، فخلا بى فشدّ علىّ يريدنى وأنا أحضر ، ودنا منى حتى إن لُعابه ليسقط على رأسى لقربه منى . فأنا أشتدُّ وأنا أنظر إلى الأرض لعلى أرى شيئاً أذبُّه[5] عنى به ، إذ وقعت عينى على هذا السيف ، قد فحص عنه السيل ، فظننته عودا باليًا ،

(١) «الأغانى» ج ١٩ ص ١٢٧ — ١٣٠ .
(٢) السويقة : علم لمكان .
(٣) مكان بالقرب من مكة .
(٤) القطم : الهائج .
(٥) أذبه : أدفعه .

فضربت بيدى إليه فأخذته ، فإذا سيف فذببتُ به البعير عنّى ذبًا والله ما أردت الذى بلغت منه ، فأصبت خيشومه فرميت بفُقْمِه[1] ، فعلمت أنه سيف جيد ، وظننته من سيوف القوم الذين كانوا قتلوا فى وقعة قديد ، وهاهو ذا قد أهديته لك يا بن رسول الله . (قال) : فأخذه منه أبى وسرّ به وجلس الأعرابى يحادثه ، فبينا هو كذلك إذ أقبلت غنم لأبى ثلثمائة شاة فيها رعاؤها ، فقال له : يا أعرابى هذه الغنم والرعاة لك مكافأةً لك عن هذا السيف . (قال) : ثم أرسل به إلى المدينة أو أرسل إلى قَيْنٍ[2] فأتى به من المدينة ؛ فأمر به فحُلّى ، فخرج أكرم سيوف الناس ، فأمر فاتّخذ له جفن[3] ودفعه إلى أختى فاطمة بنت محمد . فلما كان اليوم الذى قُتل فيه قاتَلَ بغير ذلك السيف . (قال) : وبقى السيف عند أختى فاطمة بنت محمد فزرتها يومًا وهى بينبُع فى جماعة من أهل بيتى ، وكانت عند ابن عمها الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ، عليهم أجمعين السلام ، فخرجت إلينا — وكانت برزةً[4] تجلس لأهلها كما يجلس الرجال وتحدثهم — فجلست تحدّثنا ، وأمرت مولى لها فنحر لنا جزورًا ليهيىء لنا منها طعامًا ، فنظرت إليها والجزور فى النخل باركة وقد برزت وهى تسلخ ، فقالت : إنى لا أرى فى هذه الجزور مضربًا حسنًا ، ثم دعت بالسيف وقالت : يا حسن فدتك أختك . هذا سيف أبيك ، فخذه واجمع يديك فى قائمه ، ثم اضرب به أثناءها من خلفها (تريد عراقيبها) وقد أثبتها للبروك وهى أربعة أعظم ، قال : فأخذت السيف ثم مضيت نحوها فضربت عراقيبها فقطعتها والله أربعتها ، وسبقنى السيف فدخل فى الأرض فأشفقت عليه أن ينكسر إن اجتذبته فحفرتُ عنه حتى استخرجته (قال) : فذكرت حينئذ قول النَّمِر بن تولب[5] :

---

(١) الفقم : أحد اللحيين وطرف الحنك .

(٢) القين : الحداد وصانع السيوف .

(٣) الجفن : القراب .

(٤) البرزة من النساء : غير المتحجبة .

(٥) « الأغانى » ج ١٩ ص ١٦١ — ١٦٢ .

أبقى الحوادثُ والأيامُ من نمرٍ أسيادَ سيفٍ كريم إثرهُ بادى
تظلّ تحفرُ عنه الأرض مندفعًا بعد الذراعين والقيدين والهادى[1]

ويروى : تظل تحفر عنه إن ظفرت به .

ب ــ الناقد

أبو تمام

يصور لنا أبو الفرج فى هذه القطعة أبا تمام ، ويستعمل فى رسم تلك الصورة الألوان التى رسم بها النقاد شعر أبى تمام ، فكأنه إذ يروى عنهم يذهب مذهبهم ويطنب فى شاعريته وعبقريته :

أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، من نفس طيئ صليبة ، مولده ومنشؤه بناحية منبج بقرية منها يقال لها جاسم ، شاعرٌ مطبوعٌ ، لطيف القطنة ، دقيق المعانى ، غوّاصٌ على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره ، وله مذهب فى المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء ، وإن كانوا قد فتحوه قبله ، وقالوا القليل منه ، فإن له فضل الإكثار فيه والسلوك فى جميع طرقه . والسليم من شعره النادر شىءٌ لا يتعلّق به أحد ، وله أشياء متوسطة ورديئة رذلة جدًّا . وفى عصرنا هذا من يتعصّب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف ، وأقوام يتعمّدون الردىء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون القحة والمكابرة فى ذلك ليقول الجاهل بهم إنهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه إلاّ بأدب فاضل وعلم ثاقب ، وهذا مما يتكسّب به كثيرٌ من أهل هذا الدهر ، ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب معايبهم سببًا للترفع ، وطلبًا للرياسة . وليست إساءة من أساء فى القليل وأحسن فى الكثير مسقطةً إحسانه ، ولو كثرت إساءته أيضًا ثم أحسن لم يقل له عند الإحسان أسأت ، ولا عند الصّواب أخطأت . والتوسّط فى كل شىء أجمل والحق أحقّ أن يُتّبع . وقد روى عن بعض الشعراء

(١) الهادى : العنق .

أن أبا تمام أنشده قصيدة له أحسن فى جميعها إلاّ فى بيت واحد فقال له : يا أبا تمام لو ألقيت هذا البيت ما كان فى قصيدتك عيب فقال له : أنا والله أعلم منه مثل ما تعلم ، ولكن مثل شِعْر الرجل عنده مثل أولاده ؛ فيهم الجميل والقبيح ، والرشيد والسَّاقط ، وكلهم حلو فى نفسه . فهو وإن أحب الفاضل لم يبغض الناقص ، وإن هوى بقاء المتقدّم لم يَهْوَ موت المتأخر واعتذاره بهذا ضدّ لما وصف به نفسه فى مدحه الواثق حيث يقول :

جاءتكَ من نظم اللسانِ قلادةٌ سمطان فيها اللؤلؤُ المكنونُ
أهداكها صنع اللسانِ يمدهُ جفرٌ إذا نضب الكلام معين[1]
ويسىء بالإحسان ظنًّا لا كمن هو بابنهِ وبشعرهِ مفتونُ

فلو كان يسىء بالإساءة ظنًّا ولا يفتتن بشعره كنا فى غنى عن الاعتذار له ، وقد فضل أبا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يشقّ الطاعنون عليه غبارَه ولا يدركون وإن جدُّوا آثاره ، وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له فى جده نظيرًا ولا شكلاً .

ولولا أن الرُّواة قد أكثروا فى الاحتجاج له وعليه وأكثر متعصّبوه الشرح لجيّد شعره وأفرط معادوه فى التسطير لرديئه والتنبيه على رذله ودنيئه لذكرت منه طرفًا ، ولكن قد أتى من ذلك ما لا مزيد عليه . (أخبرنى) عمى قال حدثنى أبى قال سمعت محمد بن عبد الملك الزيات يقول أشعر الناس طرًّا الذى يقول :

وما أبالى وخيرُ القولِ أصدقُهُ حقنتَ لى ماء وجهى أو حقنتَ دمى

فأحببت أن أستثبت إبراهيم بن العباس وكان فى نفسى أعلم من محمد وآدب فجلست إليه وكنت أجرى عنده مجرى الولد ، فقلت له مَنْ أشعر أهل زماننا هذا ؟ فقال الذى يقول :

---

(١) الجفر : البئر .

مطرٌ أبوك أبو أهلّة وائل ملأ البسيطة عدّةً وعديدا
نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا
ورثوا الأبوّةَ والحظوظَ فأصبحوا جمعوا جدوداً فى العلى وجدودا(١)

فاتفقا على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه . (أخبرنى) محمد بن يحيى الصولى وعلى بن سليمان الأخفش قالا : حدّثنا محمد بن يزيد النحوى قال : قدم عمارة بن عقيل بغداد فاجتمع الناس إليه فكتبوا شعره وشعر أبيه وعرضوا عليه الأشعارَ، فقال بعضهم: ههنا شاعر يزعُمُ أنه أشعر الناس طرًّا ويزعم غيرهم ضد ذلك ، فقال أنشدونى قوله فأنشدوه :

غدتْ تستجيرُ الدّمعَ خوفَ نوى غدِ وعاد قتاداً عندها كل مرقدِ (٢)
وأنقذها من غمرةِ الموتِ أنه صدودُ فراقٍ لا صدودُ تعمدِ
فأجرى لها الإشفاق دمعاً مورّداً من الدّم يجرى فوق خدٍّ مورّدِ
هى البدر يغنيها تورّدُ وجهها إلى كل من لاقتْ وإن لم تودّدِ

ثم قطع المنشد ، فقال له عمارة : زدنا من هذا ، فوصل نشيده وقال :

ولكننى لم أحوِ وفراً مجمّعاً ففزتُ به إلا بشملٍ مبدّدِ
ولم تعطنى الأيامُ نوماً مسكّناً ألذُّ به إلا بنومٍ مشرّدِ

فقال عمارة : لله درُّهُ ! لقد تقدم فى هذا المعنى من سبقه إليه على كثرة القول فيه حتى لقد حبّب الاغتراب ، هيه ، فأنشده :

وطولُ مُقام المرء فى الحىِّ مخلقٌ لديباجتيه فاغتربْ تتجدّدِ (٣)
فإنى رأيتُ الشمسَ زيدتْ محبّةً إلى الناس أنْ ليستْ عليهم بسرمدِ (٤)

---

(١) الجدود : الحظوظ . وآباء الآباء .
(٢) النوى : الفراق . القتاد : الشوك .
(٣) أخلق : أبلى .
(٤) السرمد : الدائم .

فقال عمارة : كمُل والله ! لئن كان الشعر بجودة اللفظ وحسن المعانى واطّراد المراد واتّساق الكلام فإن صاحبكمْ هذا أشعر الناس. (أخبرنى) محمد ابن يحيى الصولى قال : حدثنى محمد بن موسى بن حماد ، قال : سمعت على ابن الجهم يصف أبا تمام ويفضله ، فقال له رجل : والله لو كان أبو تمام أخاك ما زدت على مدحك هذا ، فقال : إن لم يكن أخاً بالنسب فإنه أخٌ بالأدب والمودة. أما سمعت ما خاطبنى به حيث يقول :

إن لم يكنْ مطّرفُ الإخاء فإننا ... نغــدو ونسرى فى إخاءٍ تالدِ
أو يختلف ماءُ الوصالِ فماؤنا ... عذبٌ تحدَّرَ من غمامٍ واحدِ
أو يفترقْ نسبٌ يؤلّفْ بيننا ... أدبٌ أقمناه مقام الوالدِ[1]

البحترى

البحترى شاعر ملء القلب ، يضعه أبو الفرج فى دنيا النقد حيث يجب أن يوضع ، وحيث أحب البحترى أن يضع نفسه فى المفاضلة بينه وبين أبى تمام . ويزيد أبو الفرج على جانب الشاعرية فى البحترى جانب النفس ، إذ يروى عنه تبرؤه من الهجاء :

ويكنى أبا عبادة ، شاعرٌ فاضل فصيح ، حسن المذهب نقىُّ الكلام مطبوع ، كان مشايخنا رحمة الله عليهم يختمون به الشعراء ، وله تصرّفٌ حسنٌ فاضل نقىّ فى ضروب الشعر سوى الهجاء ، فإن بضاعته فيه نزرة[2] وجيّده منه قليل . وكان ابنه أبو الغوث يزعُمُ أن السبب فى قلة بضاعته فى هذا الفن أنه لما حضره الموت دعا به وقال له : اجمع كلّ شىء قلته فى الهجاء ، ففعل : فأمره بإحراقه ثم قال له : يا بنىّ هذا شىء قلته فى وقت فشفيتُ به غيظى وكافأت به قبيحاً فعل بى ، وقد انقضى أربى فى ذلك ، وإن بقى روى . وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شىء

---

(١) «الأغانى» ج ١٥ ص ٩٦ — ٩٧ .
(٢) نزرة : قليلة .

فى نفسك أو معاشك لا فائدة لك ولا لى فيه . قال : فعلمت أنه قد نصحنى وأشفق علىّ فأحرقته. أخبرنى بذلك على بن سليمان الأخفش عن أبى الغوث . وهذا وإن كان كما قال أبو الغوث لا فائدة فيه له ، لأن الذى وجدناه وبقى فى أيدى الناس من هجائه فأكثره ساقط . . .

وكان البحترى يتشبّه بأبى تمام فى شعره ويحذو مذهبه وينحو نحوه فى البديع الذى كان أبو تمام يستعمله ، ويراه صاحبًا وإمامًا ويقدّمه على نفسه ويقول فى الفرق بينه وبينه قول منصف : إن جيّدَ أبى تمام خير من جيده ، ووسطه خيرٌ من وسط أبى تمام ورديئه ، وكذا حكم هو على نفسه[1].

ابن المعتز

دافع أبو الفرج الأصبهانى فى هذه القطعة دفاعاً بليغاً عن ابن المعتز دل على إنصافه . والقطعة ترينا أبا الفرج ناقداً من أئمة النقد ، يرى لكل عصر من العصور صوراً خاصة تستلزم لغة خاصة ، فهو من المجددين لا من المحافظين ، وقد كانت لغته فى صدر الدفاع هادئة ساكنة ، ولكنه ما لبث أن ثار فى آخر كلامه فخرج عن الاعتدال وكادت لغته تبلغ مبلغ الشتم والقذف . والذى يخيل إلينا أن أبا الفرج فى دفاعه عن ابن المعتز وفى تعرضه للطاعنين عليه دافع عن نفسه ، فكأنه كان يشكو فى حياته ما شكله ابن المعتز بعد موته :

وممن صنع من أولاد الخلفاء فأجاد وأحسن وبرع[2] وتقدّم جميع أهل عصره فضلاً وشرفًا وأدبًا وشعرًا وظَرْفًا[3] وتصرّفًا فى سائر الآداب أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله . وأمره مع قرب عهده بعصرنا هذا مشهور فى فضائله وآدابه شهرةٌ تشرك فى أكثر فضائله الخاص والعامّ ، وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة[4] المحدثين : فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ولا تقصّر عن مدى السابقين ، وأشياء ظريفة من أشعار الملوك فى جنس ما هم بسبيله ، ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية ،

(١) « الأغانى » ج ١٨ ص ١٦٧ .
(٢) برع : فاق أصحابه .
(٣) الظرف : الكياسة .
(٤) الهلهل : الثوب السخيف النسيج . هلهله النساج .

فليس يمكن واصفاً لصَبوح[١] فى مجلس شكِل[٢] ظريف ، وعلى ميادين من النوْر والبنفسج والنرجس ومنضود[٣] من أمثال ذلك ، إلى غير ما ذكرته من جنس المجالس ، وفاخر الفرش ، ومختار الآلات ، و رقة الخدم أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام السبْط[٤] الذى يفهمه كل من حضر ، إلى جَعْد[٥] الكلام ووحشيّه[٦] ، وإلى وصف البيد والمهامه[٧] والظبى والظليم[٨] والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسيء ، ولا أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسّط فى البعض وقصر فى اليسير ، وينسب إلى القصير فى الجميع لنشر المقابح وطى المحاسن . فلو شاء أن يفعل هذا كله أحد بمن تقدم لوجد مساغاً . ولو أن قائلاً أراد الطعن على صدور الشعراء ، لقد رأى أن يطعن على الأعشى وهو أحد من يقدمه الأوائل على سائر الشعراء بقوله : « فأصاب حبة قلبه وطحالها » .

وبقوله :

ويأمر لليحمـــوم كل عشيّة بقتٍّ وتعليق فقد كاد يسنقُ[٩]

وأمثال لهذا كثيرة . وإنما على الإنسان أن يحفظ من الشيء أحسنه، ويلغى ما لم يستحسنه فليس مأخوذاً به ، ولكن أقواماً أرادوا أن يرفعوا أنفسهم الوضيعة بذكرهم الخامل ، ويعلوا أقدارهم الساقطة بالطعن على أهل الفضل والقدح فيهم فلا يزدادون بذلك إلا ضعة ولا يزداد الآخر إلا ارتفاعاً . ألا

---

(١) الصبوح : ما حلب من اللبن بالغداة وما أصبح عندهم من شراب .
(٢) الشكل : بالكسر والفتح غنج المرأة ودلها وغزلها .
(٣) نضد متاعه : جعل بعضه فوق بعض .
(٤) السبط : السهل المرسل .
(٥) الجعد : المعقد .
(٦) الوحشى : الغامض .
(٧) المهامه : جمع مهمه وهو المفازة البعيدة .
(٨) الظليم : ذكر النعام .
(٩) القت : الحب البرى . التعليق : ما تتبلغ به الماشية من الشجر . اليحموم : اسم فرس . سنق من اللبن كفرح بشم واتخم .

ترى إلى ابن المعتز قد قتل أسوأ قتلة ، ودرج فلم يبق له خلف يقرّظه[١] ولا عقب يرفع منه . وما يزداد بأدبه وشعره وفضله وحسن أخباره وتصرفه فى كل فنّ من العلوم إلا رفعة وعلواً ؛ ولا نظر إلى أضداده ، كلما ازدادوا فى طعنه وتقريظ أنفسهم وأسلافهم الذين كانوا مثلهم فى ثلبه والطعن عليه ، زادوها سقوطاً وضعة ، وكلما وصفوا أشعارهم وقرظوا آدابهم ، زادوا بها ثقلاً ومقتاً ، فإذا وقع عليهم المحصّل[٢] الموافق عدلوا عن ثلبه فى الآداب إلى التشيع[٣] عليه بأمر الدين وهجاء آل طالب ، وهم أول من فعل ذلك وشنّع به على آل أبى طالب عند المكتفى حتى نهاهم عنه . فعدلوا عن عيب أنفسهم بذلك إلى عيبه ، وارتكبوا أكثر منه[٤] .

ج – مصور المجتمع

تسلط العامة على الخاصة

تتبع أبو الفرج الأصبهانى أخبار العامة وذكر طائفة من عقولها وتدليسها ولغتها ومعتقداتها وتسلطها على الخاصة بحيث إذا أردنا الموازنة بين العامة فى غابرنا والعامة فى حاضرنا وصلنا إلى تشابه فى جملة من أوضاعهم ، وهذا الخبر يدلنا على مقدار تسلط العامة على الخاصة حتى يضطر رجل مثل أبى يوسف القاضى إلى أن يتقى شرها :

قدم ابن جامع قدمة له من مكة على الرشيد ، وكان ابن جامع حسن السَّمْت[٥] كثير الصلاة قد أخذ السجود جبهته ، وكان يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة ، ويلبس لباس الفقهاء ويركب حماراً مرّيسيًّا[٦] فى زى أهل الحجاز . فبينما هو واقف على باب يحيى بن خالد يلتمس الإذن عليه ،

---

(١) قرظه : مدحه وهو حى .
(٢) المحصل : المميز .
(٣) التشنيع : تكثير الفظاعة والقبح .
(٤) «الأغانى» ج ٩ ص ١٣٣ – ١٣٤ .
(٥) السمت : هيئة أهل الخير .
(٦) المريسى : قد يجوز أن يكون الحمار المريسى منسوباً إلى مريسة وهى قرية .

فوقف على ما كان يقف الناس عليه فى القديم حتى يأذن لهم أو يصرفهم ، فأقبل أبو يوسف القاضى بأصحابه أهل القلانس ، فلمَّا هجم على الباب نظر إلى رجل يقف إلى جانبه ويحادثه ، ، فوقعت عينه على ابن جامع ، فرأى سَمْتَه وحلاوة هيئته ، فجاء فوقف إلى جانبه ، ثم قال له : أمتع الله بك ! توسمت فيك الحجازية والقرشية . قال: أصبت ، قال: فمن أى قريش أنت؟ قال : من بنى سهم ، قال: فأى الحرمين منزلك ؟ قال : مكة ، قال : ومن لقيت من فقهائهم ؟ قال : سَلْ عمن شئت . ففاتحه الفقه والحديث فوجد عنده ما أحب ، فأعجب به ونظر الناس إليهما فقالوا : هذا القاضى قد أقبل على المغنى ، وأبو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع . فقال أصحابه: لو أخبرناه عنه ، ثم قالوا : لعلَّه لا يعود إلى مرافقته بعد اليوم فلِمَ نغمه ؛ فلما كان الإذن الثانى ليحيى غدا عليه الناس ، وغداعليه أبو يوسف ، فنظر يطلب ابن جامع فرآه ، فذهب فوقف إلى جانبه ، فحادثه طويلاً كما فعل فى المرة الأولى . فلما انصرف قال له بعض أصحابه : أيها القاضى ، أتعرف هذا الذى تواقف وتحادث ؟ قال : نعم ، رجل من قريش ، من أهل مكة من الفقهاء . قالوا : هذا ابن جامع المغنى . قال : إنا لله ! قالوا : إن الناس قد شهروك بمواقفته وأنكروا ذلك من فعلك . فلما كان الإذن الثالث جاء أبو يوسف ونظر إليه فتنكَّبه[1] ، وعرف ابن جامع أنه قد أنذر به فجاء فوقف فسلم عليه فرد السلام عليه أبو يوسف بغير ذلك الوجه الذى كان يلقاه به ثم انحرف عنه ، فدنا منه ابن جامع ، وعرف الناس القصة ، وكان ابن جامع جهيرًا ، فرفع صوته ثم قال : يا أبا يوسف مالك تنحرف عنى ؟ أى شىء أنكرت ؟ قالوا لك إنى ابن جامع المغنى فكرهت مواقفتى لك ! أسألك عن مسألة ، ثم اصنع ما شئت . ومال الناس فأقبلوا نحوهما يستمعون فقال : يا أبا يوسف لو أن أعرابيًّا جلفًا وقف بين يديك فأنشدك بجفاء وغلظة من لسانه وقال :

---

(١) تنكبه : عدل عنه .

يا دار ميَّة بالعليـــاء فالسَّندِ أقوت وطال عليها سالف الأبدِ

أكنت ترى بذلك بأسًا ؟ قال : لا . قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الشعر قول وروى فى الحديث . قال ابن جامع : فإن قلت أنا هكذا . . . ثم اندفع يتغنى فيه حتى أتى عليه ، ثم قال : يا أبا يوسف رأيتنى زدت فيه أو نقصت منه ؟ قال : عافاك الله ! أعفنا من ذلك ، قال : يا أبا يوسف أنت صاحب فتيا ، ما زدت على أن حسنته بألفاظى فحسن فى السماع ووصل إلى القلب . ثم تنحَّى عنه ابن جامع[1] .

عقلية العامة

العامة عامة فى كل عصر ، أفتختلف هذه العقلية التى وصفها أبو الفرج عن عقلية العامة فى زمننا هذا ؟ فكتاب الأغانى لم يقتصر على أخبار الخلفاء والملوك وإنما نزل صاحبه إلى مستوى الشعب فراقب أخلاقه وعاداته وعقليته :

قال أبو الفرج :

أخبرنى الحسن بن على قال : حدثنا ابن مهرَوَيْه قال : حدَّثنى عثمان الوراق ، قال : رأيت العتَّابى يأكل خبزًا على الطريق بباب الشام ، فقلت له : ويحك أما تستحى ؟ فقال لى : أرأيت لو كنَّا فى دار فيها بقر كنت تستحى وتحتشم أن تأكل وهى تراك ؟ فقال : لا ، قال : فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر ، فقام فوعظ وقصَّ ودعا حتى كثر الزحام عليه ، ثم قال لهم : روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبة[2] أنفه لم يدخل النار ! فما بقى أحد إلاَّ وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه ويقدر حتى يبلغها أم لا ، فلما تفرقوا قال لى : العتَّابى : ألم أخبرك أنهم بقر[3] !

---

(١) « الأغانى » ج ٦ ص ٦٦ — ٦٧ .

(٢) الأرنبة : طرف الأنف .

(٣) « الأغانى » ج ١٢ ص ٤ .

الغناء فى دمشق

هذه القطعة تدلنا على ذوق أهل دمشق فى الغناء من أيام بنى أمية ، فكتاب الأغانى لا يقتصر على جمع الأغانى العربية قديمها وحديثها ، وإنما فيه تصوير للحياة من أكثر نواحيها ، ولولا هذه الصور المبعثرة فى أضعافه لضاع علينا كثير من آثار الحياة فى الدولتين الأموية والعباسية :

قال معبد :

أرسل إلىّ الوليد بن يزيد فأشخصت[1] إليه ، فبينما أنا يومًا فى بعض حمامات الشام إذ دخل علىّ رجلٌ له هيبة ومعه غلمان فاطّلى واشتغل به صاحبُ الحمّام عن سائر الناس ، فقلت : والله لئن لم أطلع هذا على بعض ما عندى لأكونن بمزجر[2] الكلب ، فاستدبرتُه[3] حيث يرانى ويسمع منى ثم ترنّمت ، فالتفت إلىّ وقال للغلمان : قدّموا إليه ما ههنا ، فصار جميع ما كان بين يديه عندى . قال : ثم سألنى أن أسير معه إلى منزله فأجبته ، فلم يدع من البر والإكرام شيئًا إلاّ فعله ، ثم وضع النبيذ فجعلت لا آتى بحسنٍ إلاّ خرجت إلى ما هو أحسن منه ، وهو لا يرتاح ولا يحفل[4] لما يرى منى . فلما طال عليه أمرى قال : يا غلام ! شيخَنا شيخَنا ! فأتى بشيخٍ فلما رآه هشّ إليه ، فأخذ الشيخ العود ثم اندفع يغنّى :

سِلّوْرُ فى القدْرِ ويلى علوّهْ جاء القطّ أكله ويلى علوّهْ

السلّور السمك الجِيدىّ بلغة أهل الشام قال : فجعل صاحب المنزل يصفّق ويضرب برجله طربًا وسرورًا . قال : ثم غنّاه :

وترمينى حبيبـــة بالدراقنْ وتحسبنى حبيبة لا أراها

الدراقن اسم الخوخ بلغة أهل الشام ، قال : فكاد أن يخرج من جلده

---

(١) أشخص إليه : أرسل إليه .
(٢) يقال فلان من فلان بمزجر الكلب أى بمنزلته .
(٣) استدبره : جاءه من خلفه .
(٤) يحفل : يكترث .

طربًا قال : وانسللت منهم وانصرفت ولم يعلم ما بى . فما رأيت مثل ذلك اليوم قط غناء أضيع ولا شيخًا أجهل[1] .

الغناء فى حمص

لا نمر بخبر فى كتاب الأغانى إلا وجدنا فيه شيئاً طريفاً ، فإذا أرشدنا هذا الخبر إلى ذوق أهل حمص فى الغناء فى قديم العصور فهو يرشدنا إلى مجتمعاتهم القديمة وهى الحمامات التى كانت تقوم مقام المقاهى فى عصرنا هذا .

أما التحفة اللغوية التى نظفر بها فى هذه القطعة فهى كلمة الخفائف التى كانت تستعمل بدلا من الطقاطيق فى هذا اليوم :

قال حنين :

خرجتُ إلى حمص ألتمسُ الكسبَ بها وأرتادُ من أستفيد منه شيئًا ، فسألت عن الفتيان وأين يجتمعون ، فقيل لى : عليك بالحمَّامات ، فإنهم يجتمعون بها إذا أصبحوا ، فجئتُ إلى أحدها فدخلته فإذا فيه جماعة منهم ، فأنستُ وانبسطت ، وأخبرتهم أنى غريب ، ثم خرجوا وخرجت معهم فذهبوا بى إلى منزل أحدهم ، فلما قعدنا آوتينا بالطعام فأكلنا ، وأوتينا بالشَّراب فشربنا ، فقلت لهم : هل لكم فى مغنٍّ يغنّيكم ؟ قالوا : ومن لنا بذلك ؟ قلت : أنا لكم به ، هاتوا عودًا ، فأتيت به ، فابتدأت فى هنات أبى عبَّاد معبد ، فكأنما غنَّيتُ للحيطان ، لا فكهوا لغنائى ولا سرُّوا به ، فقلت : ثقل عليهم غناءُ معبد لكثرة عملِه وشدَّته وصعوبة مذهبه ، فأخذت فى غناء الغريض فإذا هو عندهم كلا شىء ، وغنّيتُ خفائف ابن سريج ، وأهزاج حكم ، والأغانى التى لى ، واجتهدت فى أن يفهموا فلم يتحرَّك من القوم أحدٌ ، وجعلوا يقولون : ليت أبا منبه قد جاءنا . فقلت فى نفسى : أرى أنى سأفتضح اليوم بأبى منبه فضيحةً لم يفتضح أحدٌ قطُّ مثلها ، فبينا نحن كذلك إذ جاء أبو منبه ، وإذا هو شيخٌ عليه خفَّان أحمران كأنه جمال ، فوثبوا جميعًا إليه وسلموا عليه ،

---

(١) « الأغانى » ج ١ ص ٢٦ .

وقالوا : يا أبا منبه أبطأتَ علينا . وقدّموا له الطعام وسقوه أقداحًا ، وخنستُ أنا حتى صرتُ كلا شيء خوفًا منه ، فأخذ العود ثم اندفع يغنّى :

طرب البحرُ فاعبرى يا سفينَهْ   لا تشقّى على رجال المدينه

فأقبل القوم يصفقُون ويطربون ويشربون ، ثم أخذ فى نحو هذا من الغناء فقلت فى نفسى : أنتم هنا. لئن أصبحتُ سالمًا لا أمسيتُ فى هذه البلدة . فلما أصبحت شددت رحلى على ناقتى واحتقبت ركوةً من شراب ورحلت متوجّهًا إلى الحيرة وقلت :

ليت شعرى متى تخبّ بى النّا   قةُ بين السّدير والصّنين(١)
محقبًا ركوة وخبــز رقاق   وبقولاً وقطعــةً من نون (٢)
لستُ أبغى زادًا سواها من الشّا   م وحسبى علالةً تكفينى(٣)
فإذا أُبْتُ سالمًا قلتُ سحقاً   وبعــادًا لمعشر فارقونى(٤)

مجالس ملوك غسان

وصف أبو الفرج فى هذا الخبر مجلس جبلة بن الأيهم أحد ملوك غسان ، وهو خبر طريف لأنا لا نستطيع أن نهتدى إلى أخبار أولئك الملوك الخاصة فى كثير من كتبنا ، فقد يهمنا أن نعرف كيف كان طراز عيشة ملوك عاصروا البيزنطيين فى الشام ، وكيف كان أدبهم وأخلاقهم فى مجالسهم ؛ وفى هذا الخبر موازنة بين أخلاق طائفة من المسلمين فى أثناء الشرب وبين أخلاق طائفة من القساسنة :

قال خارجة بن زيد : دُعينا إلى مأدبة فى آل نبيط فحضرتها وحسّان بن ثابت قد حضرها ، فجلسنا جميعًا على مائدة واحدة وهو يومئذ قد ذهب بصره ومعه ابنه عبد الرحمن ، فكان إذا أتى طعام سأل ابنه : أطعامُ يد أم يدين ، يعنى باليد الثّريد وباليدين الشّواء(٥) لأنه ينهش نهشًا ؛ فإذا قالَ :

(١) الخبب : ضرب من العدو . صنين : كسكين موضع بالكوفة .
(٢) الرقاق : كغراب الخبز الرقيق .
(٣) العلالة : ما يتعلل به وما حلب بعد الفيقة الأولى .
(٤) «الأغانى» ج ٢ ص ١١٩ .
(٥) الشواء : اللحم المشوى .

طعام بدين ، أمسك يده ، فلما فرغوا من الطعام أتوا بجاريتين إحداهما رائقة والأخرى عزّة جلستا وأخذتا مزهريهما وضربتا ضربًا عجيبًا وغنّتا بقول حسّان :

انظرْ خليلى ببـابِ جلّق هل تبصر دون البلقاءِ من أحدِ[1]

فأسمع حسان : يقول : قد أرانى بها سميعًا بصيرًا ، وعيناه تدمعان ، فإذا سكتتا سكت عنه البكاء ، وإذا غنّتا بكى . فكنت أرى ابنه عبد الرحمن إذا سكتتا يشير إليهما أن تغنّيا فيبكى أبوه فيقول : ما حاجته إلى إبكاء أبيه ؟ قال الواقدى : فحدّثت بهذا الحديث يعقوب بن محمد الظّفَرى فقال : سمعت سعيدَ بنَ عبدِ الرحمن بن حسانَ يقول : لما انقلب حسانُ من مأدبة بنى نبيط إلى منزله استلقى على فراشه ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال : ! لقد أذكرتنى رائقة وصاحبتُها أمرًا ما سمعته أذناى بعُيَيْد ليالى جاهليتنا مع جبلة بن الأيهم ، فتبسّم ثم جلس فقال : لقد رأيت عشر قيان خمس روميّات يغنينَ بالرومية بالبرابط[2] وخمس قيان يغنينَ غناء أهل الحيرة ، وأهداهنّ إليه إياس بن قبيصة ، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح فى صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندّى إن كان شاتيًا ، وإن كان صائفًا بطنّ بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل[3] هو وأصحابه بها فى الصيف ، وفى الشتاء الفراء الفَنَك[4] وما أشبهه ولا والله ما جلست معه يومًا قط إلا خلع علىّ ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم ، وعلى غيرى من جلسائه هذا مع حلم عمن جهل ، وضحك وبذل من غير مسألة ، مع حسن وجه وحسن حديث ما رأيت منه

(١) جلق : من أسماء دمشق أو غوطتها .
(٢) البرابط : واحدها البربط وهو العود .
(٣) يتفضل بها : يبتذلها .
(٤) الفنك : دابة فروتها أطيب أنواع الفراء .

خنّى قطّ ولا عربدة ، ونحن يومئذ على الشرك فجاء الله بالإسلام فمحا به كل كفر وتركنا الخمر وما كُره وأنتم اليوم مسلمون تشربون هذا النبيذ من التمر والفضيخ[١] من الزهو والرطب فلا يشرب أحدكم ثلاثة أقداح حتى يصاحب صاحبته ويفارقها وتضرب فيه كما تضرب غرائب[٢] الإبل فلا تنتهون[٣] .

الأعشى والمحلق

كان الشعر فى المجتمع العربى القديم يفعل فى التنويه بالمآثر والمكرمات ما تفعله اليوم الصحافة والإذاعة، ثم كان السبيل إلى أعلى درجات المجد والشرف إذا كان الشاعر صاحب لسان رطب يطرى فعال الكرام ، وهذه الحكاية مثل صادق لذلك المجتمع وأثر الشعر فيه :

(وأخبرنى) محمد بن الحسن بن دريد قال : حدّثنا أبو حاتم عن أبى عبيدة عن فراس بن الخندف قال : كانت هريرة وخليدة أختين قَيْنَتَين[٤] كانتا لبشر بن عمرو بن مرثد ، وكانتا تغنّيانه النصب ، وقدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان . قال ابن دريد: فأخبرنى عمى عن ابن الكلبى بمثل ذلك (وأخبرنى) محمد بن العباس اليزيدى عن الرياشى مما أجازه له عن العتبى عن رجل من قيس عيلان قال : كان الأعشى يوافى سوق عكاظ فى كل سنة ، وكان المحلّق الكلابى مثناثًا مملقًا[٥] ، فقالت له امرأته : يا أبا كلاب ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر ؟ فما رأيت أحدًا اقتطعه إلى نفسه إلا وأكسبه خيرًا ، قال : ويحك ماعندى إلا ناقتى وعليها الحمل ، قالت : الله يخلفها عليك . قال : فهل له بدّ من الشراب والمسوح ؟ قالت : إن عندى ذخيرةً لى ولعلى أن أجمعها . قال : فتلقاه قبل أن يسبق إليه أحد ، وابنُه يقودُهُ فأخذ الخطام[٦] ، فقال

---

(١) الفضيخ : عصير العنب وشراب يتخذ من بسر مكسور .
(٢) غرائب الإبل : البعيدة .
(٣) « الأغانى » ج ١٦ ص ١٣ — ١٤ .
(٤) القينة : الأمة والمغنية .
(٥) أى كان كثير الإناث فقيراً .
(٦) الخطام: كل ما يوضع فى أنف البعير ليقاد به .

الأعشى : من هذا الذى غلبنا على خطامنا ؟ قال : المحلق . قال : شريف كريم . ثم سلمه إليه فأناخه فنحر له ناقته وكشط له عن سنامها[1] وكبدها ثم سقاه . وأحاطت بناته به يغمزنه ويمسحنه فقال : ما هذه الجوارى حولى ؟ قال : بنات أخيك ، وهن ثمان شريدتهن قليلة . قال : وخرج من عنده ولم يقل فيه شيئًا . فلما وافى سوق عكاظ إذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها وإذا الأعشى ينشدهم :

لعمرى لقد لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضوء نارٍ باليفاع تحرَّقُ
تشبُّ لمقرورين يصطليانها ... وبات على النارِ الندَى والمحلَّقُ
رضيعى لبانٍ ثدى أمٍّ تحالفا ... بأسحمَ داجٍ عوْضُ لا نتفرّقُ

فسلم عليه المحلق فقال له : مرحبًا يا سيدى بسيد قومه . ونادى يا معاشر العرب هل فيكم مذكار يزوج ابنه إلى الشريف الكريم ؟ (قال) فما قام من مقعده وفيهن مخطوبة إلا وقد زوّجها . . .

(وذكر) على بن محمد النوفلى فى خبر المحلق من الأعشى غير هذه الحكايات ، وزعم أن أباه حدّثه عن بعض الكلابيين من أهل البادية قال : كان لأبى المحلق شرف ، فمات وقد أتلف ماله وبقى المحلق وثلاث أخوات له ، ولم يترك لهم إلا ناقة واحدة وحلّى برود جيدة كان يسدّ بها الحقوق . فأقبل الأعشى من بعض أسفاره يريدُ منزله باليمامة ، فنزل الماءَ الذى به المحلق ، فقراه[2] أهل الماء فأحسنوا قراه ، فأقبلت عمة المحلق فقالت : يا ابن أخى ! هذا الأعشى قد نزل بمائنا وقد قراه أهل الماء ، والعرب تزعم أنه لم يمدح قومًا إلا رفعهم ولم يهج قومًا إلا وضعهم ، فانظر ما أقول لك واحتل فى زقٍّ من خمر من عند بعض التجار ، فأرسل إليه بهذه الناقة والزق وبردتى أبيك ، فوالله لئن اعتلج الكبد والسّنام والخمر فى جوفه ، ونظر إلى عطفيه فى البردتين ليقولن

---

(١) السنام : حدبة فى ظهر البعير .
(٢) قراه : أضافه .

فيك شعرًا يرفعك به . قال : ما أملك غير هذه الناقة ، وأنا أتوقع رسلها ، فأقبل يدخل ويخرج ويهمّ ولا يفعل ، فكلما دخل على عمته حضّته حتى دخل عليها فقال : قد ارتحل الرجل ومضى . قالت الآن والله أحسن ما كان القرى ! تتبعه ذلك مع غلام أبيك ، مولى له أسود شيخ ، فحيثما لحقه أخبره عنك أنك كنت غائبًا عن الماء عند نزوله إياه ، وأنت لما وردت الماء فعلمت أنه كان كرهت أن يفوتك قراه ، فإن هذا أحسن لموقعه عنده . فلم تزل تحضّه حتى أتى بعض التجار فكلمه أن يقرضه ثمن زقّ خمر وأتاه بمن يضمن ذلك عنه فأعطاه ، فوجه بالناقة والخمر والبردين مع مولى أبيه فخرج يتبعه ، فكلما مر بماء قيل ارتحل أمس عنه ، حتى صار إلى منزل الأعشى بمنفوحة اليمامة ، فوجد عنده عدّة من الفتيان قد غداهم بغير لحم وصب لهم فضيخًا . فهم يشربون منه إذ قُرِعَ الباب فقال : انظروا من هذا ؟ فخرجوا فإذا رسول المحلق يقول كذا وكذا . فدخلوا عليه وقالوا : هذا رسول المحلق الكلابى أتاك بكيت وكيت . فقال : ويحكم ! أعرابى والذى أرسل إلىّ لا قَدْرَ له ، والله لئن اعتلج الكبدُ والسَّنامُ والخمرُ فى جوفى لأقولن فيه شعرًا لم أقل قطّ مثله ، فوثبه الفتيان وقالوا : غبتَ عنّا فأطلت الغيبة ثم أتيناك فلم تطعمنا لحمًا وسقيتنا الفضيخ ، واللحم والخمر ببابك ، لا نرضى بذا منك ، فقال : ائذنوا له فدخل فأدى الرسالة وقد أناخ الجزور بالباب ووضع الزق والبردين بين يديه قال : أقرِه السلام وقل له : وصلتْك رَحِمٌ سيأتيك ثناؤنا . وقام الفتيان إلى الجزور فنحروها وشقوا خاصرتها عن كبدها وجلدها عن سَنامها ثم جاءوا بهما فأقبلوا يشوون ، وصبّوا الخمر فشربوا وأكل معهم وشرب ولبس البردين ونظر إلى عطفيه فيهما فأنشأ يقول :

* أرقت وما هذا السهاد المؤرقُ * حتى انتهى إلى قوله :

أبا مِسْمَعٍ سار الذى قد فعلتمُ ... فأنجد أقوامٌ به ثم أعرقوا[1]

به تعقدُ الأجمالُ فى كلّ منزلٍ ... وتعقد أطرافُ الحبالِ وتطلقُ

(١) أنجد : دخل نجداً . وأعرق : أتى العراق .

قال فسار الشعر وشاع فى العرب فما أتت على المحلق سنة حتى زوج أخواته الثلاث كل واحدة على مائة ناقة فأيسر وشرف[١] .

مباراة الأجواد

الجود شيمة من شيم العرب عرفوا بها كما عرفوا بسواها من الشيم الرفيعة كالإباء والشمم وحماية الجار . ولقد كان الجود عنصراً مهماً من عناصر حياتهم الاجتماعية ، فلا بد لمن يصور تلك الحياة من الإلمام بهذا الجانب ، كما فعل أبو الفرج فى هذه الحكاية وكثير غيرها .

أخبرنى محمد بن خلف بن المرزبان قال : حدثنا أحمد بن الهيثم بن فراس قال : حدثنا العمرى عن الهيثم بن عدى عن ابن عياش قال : كان حوشب بن يزيد بن الحويرث بن رويم الشيبانى وعكرمة بن ربعى يتنازعان الشرف ويتباريان فى إطعام الطعام ونحر الجزر فى عسكر مصعب ، وكاد حوشب يغلب عكرمة لسعة يده ، قال وقدم عبد العزيز بن يسار مولى بختر قال ، وهو زوج أم شعبة الفقيه ، بسفائن دقيق فأتاه عكرمة فقال له : الله الله فىّ قد كاد حوشب أن يستعلينى ويغلبنى بماله فبعنى هذا الدقيق بتأخير ، ولك فيه مثلُ ثمنه ربحًا فقال : خذه وأعطاه إياه فدفعه إلى قومه وفرّقه بينهم ، وأمرهم بعجنه كله فعجنوه كله ، ثم جاء بالعجين كله فجمعه فى هوّة عظيمة وأمر به فغطّى بالحشيش ، وجاء بِرَمَكة[٢] فقرّبوها إلى فرس حوشب حتى طلبها وأفلتت ، ثم ركضوها بين يديه وهو يتبعها حتى ألقوها فى ذلك العجين ، وتبعها الفرسُ حتى تورّط فى العجين وبقيا فيه جميعًا . وخرج قوم عكرمة يصيحون فى العسكر ، يا معشر المسلمين أدركوا فرس حوشب فقد غرق فى خميرة عكرمة . فخرج الناس تعجبًا من ذلك أن تكون خميرة يغرق فيها فرس ، فلم يبق فى العسكر أحد إلا ركب ينظرُ وجاءوا إلى الفرس وهو غريق فى العجين ما يبين منه إلا رأسه وعنقه ، فما أخرج إلا بالعمد والحبال ، وغلب عليه عكرمة وافتضح

---

(١) « الأغانى » ج ٨ ص ٧٦ — ٧٧ .
(٢) الرمكة : الفرس .

حوشب فقال العديل بن الفرخ يمدحهما ويفخر بهما :

وعكرمةُ الفيّاضُ فينا وحوشبٌ هما فتَيَا الناس اللذا لم يغمّرا
هما فتَيَا الناس اللذا لم ينلهما رئيسٌ ولا الأقيالُ من آل حِميَرا(١)

قال : وفى حوشب يقول الشاعر :

وأجوَدُ بالمال من حــاتمٍ وأنحَرُ للجزْرِ من حوشب(٢)

زهو الصعاليك

كانت الصعلكة ناحية من نواحى المجتمع العربى القديم ، وكان فى الصعاليك شعراء وأصحاب مآثر ، فلم يغفل عنهم أبو الفرج عند تصويره المجتمع . وهذه لمحة من لمحات الصعلكة :

قال المدائنى : وحدّثنى أبو الهيثم قال : اجتمع مالك بن الريب وأبو حَرْدَبة وشِظاظ يوماً فقالوا : تعالوا نتحدّث بأعجب ما عملناه فى سرقتنا ، فقال أبو حردبة : أعجبُ ماصنعتُ وأعجبُ ماسرقتُ أنى صحبت رفقةً فيها رجل على رَحْل فأعجبنى ، فقلت لصاحبى : واللهِ لأسرقنّ رحله ثم لا رضيت أو آخذ عليه جُعالة(٣) . فرمقتُه حتى رأيته قد خفق برأسه فأخذت بخطام جمله فقدته وعدلت به عن الطريق ، حتى إذا صيّرته فى مكان لا يُغاثُ فيه إن استغاث أنخت البعير وصرعته فأوثقت يده ورجله وقدت الجمل فغيّبته ثم رجعت إلى الرفقة وقد فقدوا صاحبهم فهم يسترجعون(٤) فقلت : ما لكم ؟ فقالوا : صاحب لنا فقدناه ، فقلت : أنا أعلمُ الناس بأثره ، فجعلوا لى جعالة فخرجت بهم أتبع الأثر حتى وقفوا عليه فقالوا : ما لك ! قال : لا أدرى نعست فانتبهت لخمسين فارساً قد أخذونى فقاتلتهم فغلبونى . قال أبو حردبة : فجعلت

---

(١) الأقيال : جمع قيل وهو الرئيس والملك من ملوك حمير .
(٢) «الأغانى» ج ٢٠ ص ١٨ — ١٩ .
(٣) الجعالة : الأجر .
(٤) أى يقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون .

أضحك من كذبه، وأعطونى جعالتى وذهبوا بصاحبهم . (وأعجب ما سرقت) أنه مرّ بى رجل معه ناقة وجمل ، وهو على الناقة فقلت لآخذنّهما جميعًا ، فجعلت أعارضه وقد رأيته خفق برأسه ، فدرتُ فأخذتُ الجمل فحللته وسقته فغيّبته فى القصيم ، وهو الموضع الذى كانوا يسرقون فيه ، ثم انتبه فالتفت فلم يرَ جمله ، فنزل وعقل راحلته ومضى فى طلب الجمل ، ودرت فحللت عقال ناقته وسقتها ، فقالوا لأبى حردبة : ويحك فحتّامَ تكون هكذا ؟ قال اسكتوا فكأنكم بى وقد تبت واشتريت فرسًا وخرجت ، فبينا أنا واقفٌ إذ جاءنى سهم كأنه قطعة رشاء[1] فوقع فى نحرى فمت شهيدًا (قال) فكان كذلك : تاب وقدم البصرة فاشترى فرسًا وغزا الروم فأصابه سهم فى نحره فاستشهد . ثم قالوا لشِظاظ : أخبرنا أنت بأعجب ما أخذت فى لصوصيتك ورأيت فيها فقال : نعمْ ، كان فلان رجل من أهل البصرة له بنت عمّ ذات مال كثير ، وهو ولِيّها وكانت له نسوة فأبت أن تتزوجه فحلف أن لا يزوّجها من أحد ضرارًا لها ، وكان يخطبها رجل غنىّ من أهل البصرة فحرضت[2] عليه وأبى الآخر أن يزوجها منه ، ثم إن ولىّ الأمر حجّ حتى إذا كان بالدوّ[3] على مرحلة من البصرة حذاءها قريب منه جبل يقال له سَنام ، وهو منزل الرفاق إذا صدرت أو وردت مات الولى فدفن برابية وشيّد على قبره فتزوجت الرجل الذى كان يخطبها ، قال شِظاظ : وخرجت رفقةٌ من البصرة معهم برٌّ ومتاع فتبصرتهم وما معهم واتبعتهم حتى نزلوا ، فلما ناموا بيّتُّهم وأخذت من متاعهم ، ثم إن القوم أخذونى وضربونى ضربًا شديدًا وجرّدونى .

(قال) وذلك فى ليلة قرّة وسلبونى كل قليل وكثير فتركونى عريانًا وتماوتُّ لهم ، وارتحل القوم فقلت : كيف أصنع ، ثم ذكرت قبر الرجل فأتيته فنزعت لوحة ثم احتفرت فيه سَرَبًا فدخلت فيه ثم سددت علىّ باللوح وقلت : لعلى الآن أدفأ فأتبعهم .

---

(١) الرشاء : الحبل .
(٢) حرضت : حزنت .
(٣) الدو : الصحراء .

(قال) : ومرّ الرجل الذى تزوج بالمرأة فى الرفقة ، فمرّ بالقبر الذى أنا فيه فوقف عليه وقال لرفيقه : والله لأنزلن إلى قبر فلان حتى أنظر هل يحمى الآن بضع فلانة ، قال شظاظ : فعرفت صوته فقلعت اللوح ثم خرجت عليه بالسيف من القبر وقلت : بلى ورب الكعبة لأحمينّها . فوقع والله على وجهه مغشيًّا عليه لا يتحرّك ولا يعقل ؛ فجلست على راحلته وعليها كل أداة وثياب ونقد كان معه ، ثم وجهتها قصد مطلع الشمس هاربًا من الناس فنجوت بها فكنت بعد ذلك أسمعه يحدّث الناس بالبصرة ويحلف لهم أن الميت الذى كان منعه من تزوج المرأة خرج عليه من قبره بسلَبه [1] وكفنه فبقى يؤمّه ثم هرب منه والناس يعجبون منه . فعاقلهم يكذّبه ، والأحمق منهم يصدقه ، وأنا أعرف القصة فأضحك منه كالمتعجب ، قالوا : فزدنا قال : فأنا أزيدكم أعجب من هذا . إنى لأمشى فى الطريق أبتغى شيئًا أسرقه فلا والله ما وجدت شيئًا ، قال : وشجرة ينام من تحتها الركبان بمكان ليس فيه ظل غيرها ، وإذا أنا برجل يسير على حمار له ، فقلت له : أتسمع ؟ قال : نعم ، قلت : إن المقبل الذى تريد أن تقيله يخسف بالدواب فيه فاحذره ، فلم يلتفت إلى قولى .

(قال) ورمقه حتى إذا نام أقبلت على حماره فاستتته حتى إذا برزتُ به قطعت طرف ذنبه وأذنيه ، وأخذت الحمار فخبأته . وأبصرته حين استيقظ من نومه فقام يطلب الحمار ويقفو أثره ، فبينا هو كذلك إذ نظر إلى طرف ذنبه فقال : لعمرى لقد حذرت لو نفعنى الحذر ، واستمرّ هاربًا خوف أن يخسف به ، فأخذت جميع ما بقى من رحله فحملته على الحمار وأستمرّ فألحق بأهلى .

قال (أبو الهيثم) ثم صلب الحجاج رجلاً من الشراة بالبصرة وراح عشيًّا لينظر إليه فإذا برجل بإزائه مقبل بوجهه عليه فدنا منه فسمعه يقول للمصلوب : طال ما ركبت فأعقِبْ [2] . فقال الحجاج : من هذا ؟ قالوا : هذا شِظاظ

---

(١) السلب : الملابس .
(٢) أعقب : اجعل غيرك مكانك .

اللص قال : لا جرم والله ليعقبنّك . ثم وقف وأمر بالمصلوب فأنزل وصلب شظاظًا مكانه [١] .

د ــ القاص

بدوى فى عرس

وصف أبو الفرج الأصبهانى فى هذه القطعة أشياء كثيرة : وصف القرية وحالات البدوى والطعام والشراب والسكر وآلات الغناء . وقد ظهرت براعة أبى الفرج فى وصف حالات البدوى النفسية وفى وصف سكره ، واهتدينا إلى خصائص لغته ، وأهم هذه الخصائص صب اللفظ فى مواضعه فهو يميل إلى استعمال الألفاظ على حقيقتها وإلى استعمال الصفات الخاصة وهذا كله مما يزيد فى وضوح الوصف .

(أخبرنى) الحسن بن على الخفّاف قال : حدثنا محمد بن القاسم قال : حدثنى الفضل بن العباس الهاشمى من ولد قُثَم بن جعفر بن سليمان عن أبيه قال : كان ناهض بن ثُومة الكلابى يفد على جدى قثم فيمدحه ويصله جدى وغيره . وكان بدويًّا جافيًا كأنه من الوحش ، وكان طيب الحديث فحدّثه يومًا أنهم انتجعوا ناحية الشام ، فقصد صديقًا له من ولد خالد بن يزيد بن معاوية كان ينزل حلب فإذا نزل نواحيها أتاه فمدحه وكان برًّا به ، قال : فمررت بقرية يقال لها قرية بكر بن عبد الله الهلالى ، فرأيت دورًا متباينة وخصاصًا [٢] قد ضم بعضها إلى بعض ، وإذا بها ناس كثيرون مقبلون ومدبرون ، عليهم ثياب تحكى ألوان الزهر . فقلت فى نفسى : هذا أحد العيدين الأضحى أو الفطر ، ثم ثاب إلى ما عزب [٣] عن عقلى ، فقلت خرجت من أهلى فى بادية البصرة فى صَفَرَ وقد مضى العيدان قبل ذلك . فما هذا الذى أرى ؟ فبينما أنا واقف متعجب أتانى رجل فأخذ بيدى فأدخلنى دارًا قوراء [٤] وأدخلنى منها بيتًا قد نُجِّدَ فى وجهه فرُش ومهدت ، وعليها شاب ينال فروع شعره من منكبيه والناس

(١) « الأغانى » ج ١٩ ص ١٦٧ — ١٦٩ .
(٢) الخصاص : جمع الخص وهو البيت من القصب .
(٣) عزب : غاب وذهب . (٤) قوراء : واسعة .

حوله سماطان ، فقلت فى نفسى : هذا الأمير الذى حُكى لنا جلوسه على الناس وجلوس الناس بين يديه ؛ فقلت وأنا ماثل بين يديه : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، فجذب رجل بيدى وقال : اجلس فإن هذا ليس بأمير . قلت : فما هو ؟ قال : عروس . فقلت : وا ثكلَ أماه ! لربّ عروس رأيته بالبادية أهون على أهله . فلم أنشب أن دخل الرجال يحملون هنات[1] مدوَّرات أمَّا ما خفّ منها فيحمل حملاً ، وأمَّا ما كبُر وثُقل فيدحرج . فوُضع ذلك أمامنا ، وتحلَّق[2] القوم عليه حَلَقًا ، ثم أتينا بخِرَق بيض فألقيت بين أيدينا فظننتها ثياباً وهممت أن أسأل القوم منها خِرقًا أقطعها قميصًا ، وذلك أنى رأيت نسجًا متلاحمًا لا يبين له سَدًى ولا لُحْمة ؛ فلما بسطه القوم بين أيديهم إذا هو يتمزق سريعًا ، وإذا هو فيما زعموا صِنْف من الخبز لا أعرفه ، ثم أتينا بطعام كثير بين حلو وحامض وحارّ وبارد فأكثرت منه . وأنا لا أعلم ما فى عقبه من التخْم والبَشَم ، ثم أتينا بشراب أحمر فى عساس[3] . فقلت : لا حاجة لى فيه ، فإنى أخاف أن يقتلنى . وكان إلى جانبى رجلٌ ناصح لى أحسن الله جزاءه ، فإنه كان ينصح لى من بين أهل المجلس فقال : يا أعرابى إنك قد أكثرت من الطعام وإن شربت الماء همى[4] بطنك . فلما ذكر البطن تذكرت شيئًا أوصانى به أبى والأشياخ من أهلى قالوا : لا تزال حيًّا ما كان بطنك شديدًا ، فإذا اختلف[5] فأوصِ . فشربت من ذلك الشراب لأتداوَى به ، وجعلت أكثر منه فلا أمل شُربه ، فتداخلنى من ذلك صَلَف لا أعرفه من نفسى ، وبكاء لا أعرف سببه ولا عهد لى بمثله ، واقتدار على أمر أظن معه أنى لو أردت نيل السقف لبلغته ، ولو ساورت الأسد لقتلته ، وجعلت ألتفت إلى الرجل الناصح لى فتحدثنى نفسى بهتم أسنانه ، وهشم أنفه . . .

---

(١) الهنات : الأشياء اليسيرة .

(٢) تحلقوا : جلسوا حلقات .

(٣) العساس : الأقداح العظام الواحد عس .

(٤) همى : سقط .

(٥) اختلف : لان بطنه .

فبينا نحن كذلك إذ هجم علينا شياطين أربعة ، أحدهم قد علّق فى عنقه جعْبة[١] فارسية مسنّجة[٢] الطرفين دقيقة الوسَط مشبوحة بالخيوط شبحًا منكرًا ، ثم بدر الثانى فاستخرج من كمه هنة سوداء فوضعها فى فيه وصوّت بها صوتًا لم أسمع وبيت الله أعجب منه فاستتم بها أمرهم ، ثم حرّك أصابعه على أحْجُر فيها فأخرج منها أصواتًا ليس كما بدأ . ولكنه أتى منها لما حرك أصابعه بصوت عجيب متلائم متشاكل بعضُه لبعض كأنه علم الله ينطق ، ثم بدا ثالث كز[٣] مقيتٌ عليه قميص وسخ ، معه مرآتان . فجعل يصفق بهما بيديه إحداهما على الآخرة فخالطت بصوته ما يفعله الرجلان ، ثم بدا رابع عليه قميص مصون وسراويل مصون ، وخفّان أخذمان[٤] لا ساق لواحد منهما ، فجعل يقفز كأنه يثب على ظهور العقارب ، ثم التُبِط به على الأرض ، فقلت معتوه ورب الكعبة ، ثم ما برح مكانه حتى كان أغبط القوم عندى . ورأيت القوم يحذفونه بالدراهم حذفًا منكرًا ثم أرسل النساء إلينا أن أمتعونا من لهوكم هذا فبعثوا بهم وجعلنا نسمع أصواتهم عن بعد ، وكان معنا فى البيت شاب لا آبه له فعلت الأصوات بالثناء عليه والدعاء فخرج فجاء بخشبة عيناها فى صدرها ، فيها خيوط أربعة فاستخرج من خلالها عودًا فوضعه خلف أذنه ثم عرك آذانها وحركها بخشبة فى يده فنطقت ورب الكعبة ، وإذا هى أحسن قينة رأيتها قط ، وغنّى فأطربنى حتى استخفنى من مجلسى ، فوثبت فجلست بين يديه وقلت : بأبى أنت وأمى ! ما هذه الدابة فلست أعرفها للأعراب وما أراها خُلقت إلا قريبًا ! فقال : هذا البرْبط[٥] . فقلت : بأبى أنت وأمى! فما هذا الخيط الأسفل ، قال : الزير ، قلت : فالذى يليه ، قال : المثنّى ، قلت : فالأعلى ، قال : البَم[٦] . فقلت : آمنت بالله أولاً وبك ثانيًا وبالبرْبَط

---

(١) الجعبة : كنانة النشاب .
(٢) مسنجة : مخططة .
(٣) كز : قبيح .
(٤) أخذمان : مقطعان .
(٥) البربط : العود .
(٦) البم : الوتر الغليظ .

ثالثًا وبالبَسْم رابعًا . قال : فضحك أبى والله حتى سقط ، وجعل ناهض يعجب من ضحكه . ثم كان بعد ذلك يستعيده هذا الحديث ويطوف به إخوانه فيعيده ويضحكونه منه[١] .

طمع أعرابى

هذه رواية هزلية ركز أبو الفرج أبطالها تركيزاً لا نستطيع أن نجد أشد إحكاماً منه ، ولم تكن براعته فى تدريج حوادث الرواية بأقل من براعته فى تركيز أبطالها ، فلا يكاد القارئ يفرغ من مفاجأة المشهد الأول حتى ينتقل إلى مفاجأة أقوى ، وعلى هذا الشكل يظل ذهنه متعلقاً بالرواية من أول مشاهدها إلى آخرها .

وقد تجلى فن أبى الفرج الأصبهانى فى هذه الرواية ، فقد اجتمع له من الألفاظ المحسوسة والتشبيهات الناطقة ما أعانه على دقة التصوير والشىء الغالب على الرواية إنما هو روح السخرية .

أخبرنى محمد بن مزيد قال : حدّثنا عمر بن شبّة قال : حدّثنا ابن زبالة قال : حدّثنا ابن ربيح راوية بن هَرْمة عن أبيه قال : كان أبان بن عثمان من أهزل الناس وأعبثهم وبلغ من عبثه أنه كان يجىء بالليل إلى منزل رجل فى أعلى المدينة له لقب يغضب منه فيقول له : أنا فلان ابن فلان ، ثم يهتف بلقبه فيشتمه أقبح شتم وأبان يضحك ، فبينا نحن ذات يوم عنده وعنده أشعب إذ أقبل أعرابى ومعه جمل له ، والأعرابى أشقر أزرق أزعر [٢]غضوب ، يتلظى[٣] كأنه أفعى ويتبين الشرّ فى وجهه ، ما يدنو منه أحد إلا شتمه ونهره ، فقال أشعب لأبان : هذا والله من البادية ، ادعوه . فدعى وقيل له : إن الأمير أبان بن عثمان يدعوك ، فأتاه فسلّم عليه ، فسأله أبان عن نفسه فانتسب له فقال : حيّاك الله يا خالى . حبيب ازداد حبًّا ، فجلس فقال له : إنى فى طلب جمل مثل جملك هذا منذ زمان فلم أجده كما أشتهى بهذه الصفة وهذه القامة واللون والصدر والورك[٤] والأخفاف ، فالحمد لله الذى جعل

---

(١) « الأغانى » ج ١٢ ص ٣٣ — ٣٥ .
(٢) شعر أزعر : قليل متفرق .
(٣) يتلظى : يتلهب .
(٤) الورك : ما فوق الفخذ .

ظفرى به من عند من أحبه ، أتبيعه ؟ فقال : نعم أيها الأمير . فقال : فإنى قد بذلت لك به مائة دينار ، وكان الجمل يساوى عشرة دنانير ، فطمع الأعرابى وسرَّ وانتفخ وبان السرور والطمع فى وجهه ، فأقبل أبان على أشعب ثم قال له : ويلك يا أشعب إن خالى هذا من أهلك وأقاربك يعنى الطمع فأوسع له مما عندك فقال له : نعم : بأبى أنت وزيادة ، فقال له أبان : يا خالى إنما زدتك فى الثمن على بصيرة ، وإنما الجمل يساوى ستين دينارًا ، ولكن بذلت لك مائة لقلة النقد عندنا ، وإنى أعطيك به عروضًا[1] تساوى مائة ، فزاد طمع الأعرابى وقال : قد قبلت ذلك أيها الأمير ، فأسرَّ إلى أشعب فأخرج شيئًا مغطًّى فقال له : أخرج ما جئت به ، فأخرج جَرْد عمامة خز خَلَق[2] تساوى أربعة دراهم فقال له : قوّمها يا أشعب ، فقال له : عمامة الأمير تعرف به ويشهد فيها الأعياد والجمع ويلقى فيها الخلفاء ، خمسون دينارًا ، فقال : ضعها بين يديه ، وقال لابن ربيح أثبت قيمتها ، فكتب ذلك ووضعت العمامة بين يدى الأعرابى فكاد يدخل بعضه فى بعض غيظًا ولم يقدر على الكلام ، ثم قال : هات قلنسوتى ، فأخرج قلنسوة طويلة خلقة قد علاها الوسخ والدهن وتخرقت تساوى نصف درهم ، فقال : قوّم فقال : قلنسوة الأمير تعلو هامته ويصلى فيها الصلوات الخمس ويجلس للحكم ، ثلاثون دينارًا ، فقال : أثبت ، فأثبت ذلك ، ووضعت القلنسوة بين يدى الأعرابى فتربَّد[3] وجهه وجحظت[4] عيناه وهمّ بالوثوب ثم تماسك وهو متقلقل ، ثم قال لأشعب : هات ما عندك ، فأخرج خفَّين خلقين قد نقبا[5] وتقشَّرا وتفتَّقا فقال له : قوّم ، فقال خفّا الأمير يطأ بهما الروضة ويعلو بهما منبر النبى صلى الله عليه وسلم ، أربعون دينارًا ، فقال ضعهما بين يديه ، فوضعهما ،

---

(١) العروض : جمع العرض وهو المتاع وكل شى سوى النقدين .
(٢) الخلق : البالى للمذكر والمؤنث . الجرد : الخلق .
(٣) تربد : تغير .
(٤) جحظت عينه : خرجت مقلتها .
(٥) نقبا : رقا .

ثم قال للأعرابى : اضمم إليك متاعك، وقال لبعض الأعوان : اذهب فخذ الجمل ، وقال لآخر : امض مع الأعرابى فاقبض منه ما بقى لنا عليه من ثمن المتاع ، وهو عشرون دينارًا، فوثب الأعرابى فأخذ القماش[1] فضرب به وجوه القوم لا يألو فى شدة الرمى به ، ثم قال له : أتدرى أصلحك الله من أى شىء أموت قال : لا ، قال: يا لم أدرك أباك عثمان فأشترك والله فى دمه إذ ولد مثلك، ثم نهض مثل المجنون حتى أخذ برأس بعيره . وضحك أبان حتى سقط كل من كان معه ، وكان الأعرابى بعد ذلك إذا لقى أشعب يقول له : هلمّ إلى يا ابن الخبيثة حتى أكافئك على تقويمك المتاع يوم قوّم، فيهرب أشعب منه[2] .

عفو أمير

هذه قصة صغيرة ، عرضت حوادثها فى أوضح معرض ، كل حادثة منها مربوطة بعلتها وسببها ، ورتبت ترتيباً متقناً ، رواها أبو الفرج على شكل مستميل ، لم يفاجئ القارئ مفاجأة بعفو الأمير من أول القصة وإنما استدرجه إلى ذلك استدراجاً حتى يبقى ميله إلى معرفة الخاتمة معلقاً .

صورت هذه القصة أمراً روحانياً وهو العفو والمروءة ، ولذلك نجد فيها الألفاظ المجردة . أما الألفاظ المحسوسة فهى قليلة ، فلم يلجأ فيها أبو الفرج إلى اللغة الشعرية وإنما لجأ إلى تقطيع عباراته والأسلوب المقطع هو الذى يصلح للقصة الصغيرة :

(أخبرنى) عمى قال : حدثنى أبو جعفر بن الدهقانة[3] النديم قال : حدثنى محمد بن الفضل الخراسانى وكان من وجوه قوّاد طاهر وابنه عبد الله وكان أديبًا عاقلاً فاضلاً قال :

لما قال عبد الله بن طاهر قصيدته التى يفخر فيها بمآثر أبيه وأهله، ويفخر بقتلهم المخلوع ، عارضه محمد بن يزيد الأموى الحصنى وكان رجلاً من ولد مسلمة بن عبد الملك ، فأفرط فى السبّ ، وتجاوز الحد فى قبح الرد

---

(١) القماش : ما على وجه الأرض من فتات الأشياء .
(٢) « الأغانى » ج ١٧ ص ١٠٢ — ١٠٣ .
(٣) الدهقان : بكسر الدال وضمها زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم .

وتوسط بين القوم وبين بنى هاشم فأربى فى التوسط والتعصّب فكان فيما قال فيه :

يا بنَ بيتِ النار موقدها ما لحاذيه سراويلُ[١]
مَنْ حسين مَنْ أبوك ومَنْ مصعبٌ غالتكم غولُ[٢]
نسبٌ فى الفخرِ مؤتشبٌ وأبوّات أراذيلُ[٣]
قاتل المخلوع مقتولُ ودمُ المقتولِ مطلولُ[٤]

وهى قصيدةٌ طويلة . فلما ولى عبد الله مصر ، وردّ إليه تدبير أمر الشأم علم الحصنى أنه لا يفلت منه إن هرب ، ولا ينجو من يده حيث حلّ ، فثبت فى موضعه ، وأحرز حرمه ، وترك أمواله ودوابّه وكل ما كان يملكه فى موضعه ، وفتح باب حصنه وجلس عليه ، ونحن نتوقّع من عبد الله بن طاهر أن يوقع به . فلما شارفنا بلده[٥] وكنا على أن نصبحه ، دعانى عبد الله الليل فقال لى : بِتْ عندى الليلة وليكن فرسك معدًّا عندك لا يردّ ففعلت ، فلما كان فى السحَر أمر غلمانه وأصحابه أن يرحلوا حتى تطلع الشمس ، وركب فى السّحَر وأنا وخمسة من خواص غلمانه ، فسار حتى صبح الحصنى فرأى بابه مفتوحًا ورآه جالسًا مسترسلاً فقصده وسلم عليه ونزل عنده . وقال له : ما أجلسك ههنا وجعلك على أن فتحت بابك ولم تتحصّن من هذا الجيش المقبل ، ولم تتنحّ عن عبد الله بن طاهر مع ما فى نفسه عليك وما بلغه عنك فقال : إن ما قلت لم يذهب علىّ ولكنى تأملت أمرى وعلمت أنى أخطأت خطيئة حملنى عليها نزقُ الشباب وغرّةُ الحداثة ، وأنى إن هربت منه لم أفته فباعدت البنات والحرم ، واستسلمت بنفسى وكل ما أملك ، فإنّا أهلُ بيت

---

(١) حاذيه : من حذى الرجل نعلا ألبسه إياها .
(٢) غاله : أهلكه .
(٣) مؤتشب : غير صريح فى النسب . الأراذيل : من الرذيل وهو الخسيس .
(٤) مطلول : لا يثأر به .
(٥) شارف بلده : علاه .

قد أسرع القتل فينا ، ولى بمن مضى أسوةٌ ، فإنى أثق بأن الرجل إذا قتلنى وأخذ مالى شفى غيظه ، ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم ولا له فيهنّ أرب ، ولا يوجب جرمى إليه أكثر مما بذلته قال : فوالله ما اتقاه عبد الله إلا بدموعه تجرى على لحيته ، ثم قال له : أتعرفنى قال : لا والله ، قال : أنا عبد الله بن طاهر ، وقد أمّنَ الله تعالى روعتك[1] ، وحقّنَ دمَك ، وصانَ حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك ، وما تعجّلت إليك وحدى إلا لتأمن من قبل هجوم الجيش ، ولئلا يخالط عفوى عنك روعة تلحقك . فبكى الحصنى وقام فقبّلَ رأسَهُ وضمّه عبد الله وأدناه ثم قال له : أمّا فلا بدّ من عتاب يا أخى ، جعلنى الله فداك ، قلت شعرًا فى قومى أفخر بهم لم أطعن فيه على حسبك ولا ادّعيت فضلاً عليك ، وفخرت بقتل رجل هو وإن كان من قومك فهم القوم الذين تأرك عندهم فكان يسعك السكوت أو إن لم تسكت لا تغرق ولا تسرف فقال :

أيها الأمير قد عفوت فاجعل العفو الذى لا يخلطه تثريب [2] ولا يكدّر صفوه تأنيب . قال : قد فعلت ، فقم بنا ندخل إلى منزلك حتى نوجب عليك حقًّا بالضيافة ، فقام مسرورًا فأدخلنا فأتى بطعام كان قد أعدّه فأكلنا وجلسنا نشرب فى مستشرف له ، وأقيل الجيش فأمرنى عبد الله أن أتلقّاهم فأرحلهم ولا ينزل أحد منهم إلا فى المنزل وهو على ثلاثة فراسخ ، ثم دعا بدواة فكتب له بتسويغه[3] خراجه ثلاث سنين وقال له : إن نشطت لنا فالحق بنا وإلا فأقم بمكانك فقال : فأنا أتجهّزُ وألحق بالأمير ففعل فلحق بنا بمصر ، ولم يزل مع عبد الله لا يفارقه حتى رحل إلى العراق فودّعه وأقام ببلده[4] .

---

(١) الروعة : الفزعة .

(٢) التثريب : اللوم والتعيير بالذنب .

(٣) التسويغ : التجويز .

(٤) «الأغانى» ج ١١ ص ١٢ — ١٣ .

تطفل إسحق الموصلي

نشهد في هذه القطعة ، وفي القطعة التي تليها ، كما شهدنا في القطع السابقة ، براعة أبي الفرج في القصص والرواية ، فالعرض خفيف الظل ، والعقدة مشوقة والخاتمة لا تكشف سرها إلا في نهاية المطاف ، والأسلوب رائع يملك على القراء ألبابهم .

أخبرنا محمد بن مزيد قال : حدّثنا حماد بن إسحق عن أبيه أنه حدّثه قال : غدوت يومًا وأنا ضَجِرٌ من ملازمة دار الخلافة والخدمة فيها، فخرجتُ وركبتُ بُكْرَةً وعزمتُ على أن أطوفَ الصحراء وأتفرج ، فقلت لغلماني إن جاء رسولُ الخليفة أو غيره فعرّفوه أني بكّرْتُ في بعض مهمّاتي ، وأنكم لا تعرفون أين توجّهت ومضيتُ وطفت ما بدا لي ، ثم عدت وقد حَمِيَ النهار ، فوقفت في الشارع المعروف بالمخرم، في فناء ثخين الظل وجَناح رَحْب على الطريق لأستريح ، فلم ألبث أن جاء خادم يقود حمارًا فارهًا عليه جارية راكبة ، تحتها منديل دبيق ، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية بعده، ورأيتُ لها قوامًا حسنًا وطَرفًا فاترًا وشمائلَ حسنة فَخَرَصْتُ[1] عليها أنها مغنيّة. فدخلت الدار التي كنت واقفًا عليها، ثم لم ألبث أن جاء رجلان شابان جميلان فاستأذنا فأذن لهما، فنزلا ونزلتُ معهما ودخلت ، فظنّا أن صاحب الدار دعاني، وظن صاحب الدار أني معهما، فجلسنا وأُتيَ بالطعام فأكلنا وبالشراب فوضع ،وخرجت الجارية وفي يدها عود فغنت وشربنا ، وقمتُ قومةً . وسأل صاحب المنزل الرجلين عني فأخبراه أنهما لا يعرفاني ، فقال : هذا طفيلي ، ولكنه ظريف ، فأجملوا عشرته؛ وجئت فجلست وغنّت الجارية في لحن لي :

ذكرتك أن مرّت بنا أمُّ شادنٍ أمامَ المطايا تشرئبُّ وتسنَحُ
من المؤلفاتِ الرّملَ أدماء حرّة شعاعُ الضحى في متنها يتوضَّحُ

---

(١) خرصت : حدست وقلت بالظن .

فأدته أداءً صالحًا وشربت ثم غنّت أصواتًا شتى ، وغنّت فى أضعافها من صنعتى :

الطلولُ الدوارسُ فارقتْها الأوانسُ

أوحشتْ بعد أهلِها فهى قفرٌ بسابسُ

فكان أمرها فيه أصلح منه فى الأول ، ثم غنّت أصواتًا من القديم والحديث وغنّت فى أثنائها من صنعتى :

قل لمن صدّ عاتبا ونأى عنك جانبا

قد بلغت الذى أرد تَ وإن كنت لاعبا

فكان أصلح ما غنّته ، فاستعدته منها لأصححه لها ، فأقبل علىّ رجلٌ من الرجلين وقال : ما رأيت طفيليًا أصفق وجهًا منك لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت ، وهذا غاية المثل طفيلىٌّ مقترِح . فأطرقت ولم أجبه ، وجعل صاحبه يكفّه عنى فلا يكفّ . ثم قاموا للصلاة وتأخرت قليلاً فأخذت عود الجارية ثم شددت طبقته وأصلحته إصلاحًا محكمًا وعدت إلى موضعى فصليت وعادوا . ثم أخذ ذلك الرجل فى عربدته علىّ وأنا صامت ، ثم أخذت الجارية العود فجسّته وأنكرت حاله وقالت : مَن مسّ عودى ؟ قالوا : ما مسّه أحد ، قالت : بلى والله ! لقد مسّه حاذق متقدم وشدّ طبقته وأصلحه إصلاح متمكن من صناعته ، فقلت لها : أنا أصلحته . قالت : فبالله خذه واضرب به ، فأخذته وضربت به مبدأ صحيحًا ظريفًا عجيبًا صعبًا فيه نقرات محركة ، فما بقى أحد منهم إلاّ وثب وجلس بين يدى ثم قالوا : بالله يا سيدنا أتغنى ؟ فقلت : نعم ، وأعرفكم نفسى ، أنا إسحق بن إبراهيم الموصلى ، ووالله إنى لأتيهُ على الخليفة إذا كلمنى ، وأنتم تسمعوننى ما أكره منذ اليوم لأنى تملّحت معكم ، فوالله لا نطقتُ بحرف ولا جلست معكم حتى تخرجوا هذا المعربد المقيت الغثّ ، فقال له صاحبه : من هذا حذرت عليك فأخذ يعتذر فقلت : والله لا نطقت بحرف ولا جلست معكم حتى يخرج ، فأخذوا بيده فأخرجوه

وعادوا ، فبدأتُ وغنّيت الأصوات التى غنّتها الجارية من صنعتى فقال لى الرجل : هل لك فى خصلة ؟ قلت : ما هى ؟ قال : تقيم عندى شهرًا والجارية والحمار لك مع ما عليها من حلى ، قلت : أفعل . فأقمت عنده ثلاثين يومًا لا يدرى أحد أين أنا ، والمأمون يطلبنى فى كل موضع فلا يعرف لى خبرًا . فلما كان بعد ثلاثين يومًا أسلم إلىّ الجارية والحمار والخادم ، فجئت بذلك إلى منزلى ، وركبت إلى المأمون من وقتى ، فلما رآنى قال : إسحق ، ويحك! أين أنت فأخبرته بخبرى ، فقال : علىّ بالرجل الساعة ، فدللتهم على بيته ، فأحضر ، فسأله المأمون عن القصة فأخبره ، فقال له : أنتَ رجلٌ ذو مروءة ، وسبيلك أن تعاون عليها ، وأمر له بمائة ألف درهم ، وقال : لا تعاشرنّ ذلك المعربد النذل البتة ، وأمر لى بخمسين ألف درهم ، وقال : أحضرنى الجارية فأحضرتها فغنّته فقال لى : قد جعلت لها نوبة فى كل يوم ثلاثاء تغنينى وراء الستارة مع الجوارى ، وأمر لها بخمسين ألف درهم ، فربحتُ والله بتلك الركبة وأربحتُ[1] .

دحمان والجارية والوليد

(أخبرنى) وكيع عن أبى أيوب المدينى إجازةً عن أبى محمد العامرى الأويسى قال : كان دحمان جمّالاً يكرى إلى المواضع ويتجر ، وكانت له مروءة ، فبينا هو ذات يوم قد أكرى جماله وأخذ ماله إذ سمع رنّة ، فقام واتبع الصوت ، فإذا جاريةٌ قد خرجت تبكى فقال لها : أمملوكة أنت ؟ قالت : نعم . فقال : لمن ؟ قالت : لامرأة من قريش ، وسمّتها له . فقال : أتبيعك ؟ قالت : نعم . ودخلت إلى مولاتها فقالت : هذا إنسانٌ يشترينى . فقالت : ائذنى له ، فدخل فساومها حتى استقرّ أمر الثمن بينهما على مائتى دينار فنقدها إياها وانصرف بالجارية . قال دحمان فأقامت عندى مدة أطرح عليها ويطرح

(١) « الأغانى » ج ٥ ص ١١٩ — ١٢٠ .

عليها معبد والأبجر ونظراؤهما من المغنّين ، ثم خرجت بها بعد ذلك إلى الشام . وقد حذقت وكنت لا أزال إذا نزلنا أنزل الأكرياء[١] ناحية وأنزل معتزلاً بها ناحية فى محمل وأطرح على المحمل من أعبية الجمّالين ، وأجلس أنا وهى تحت ظلها ، فأخرج شيئًا فنأكله ، وتضع ركوة[٢] لنا فيها شراب فنشرب ونتغنّى حتى نرحل . ولم نزل كذلك حتى قربنا من الشام . فبينا أنا ذات يوم نازلٌ وأنا ألقى عليها لحنى :

لو ردَّ ذو شَفَق حِمَامَ منيّة ... لرددتُ من عبد العزيز حِماما
صلّى عليك الله من مستودعٍ ... جاورت رَمْسًا فى القبور وهاما[٣]

(قال) فرددته عليها حتى أخذته واندفعت تغنيه ، فإذا أنا براكب قد طلع فسلم علينا فرددنا عليه السلام فقال : أتأذنوا[٤] لى أن أنزل تحت ظلكم هذا ساعةً ؟ قلنا : نعم . فنزل وعرضتُ عليه طعامنا وشرابنا فأجاب ، فقدمنا إليه السفرة فأكل وشرب معنا واستعاد الصوت مرارًا ثم قال للجارية : أتغنين لدحمان شيئًا . قالت : نعم . قال فغنيى صوتًا من صنعته ، فغنّته أصواتًا من صنعتى وغمزتها أن لا تعرّفه أنى دحمان ، فطرب وامتلأ سرورًا وشرب أقداحًا والجاريةُ تُغنيه حتى قرب وقت الرحيل ، فأقبل علىّ وقال : أتبيعنى هذه الجارية؟فقلت : نعم . قال : بكم ؟ قلت كالعابث : بعشرة آلاف دينار . قال : قد أخذتها بها ، فهلمّ دواةً وقرطاسًا ، فجئته بذلك فكتب : ادفع إلى حامل كتابى هذا حين تقرؤه عشرة آلاف دينار واستوصِ به خيرًا وأعلمنى بمكانه . وختم الكتاب ودفعه إلىّ ثم قال : أتدفع إلىّ الجارية أم تمضى بها معك حتى تقبض مالك . فقلت بل أدفعها إليك . فحملها وقال : إذا جئتْ النجراء[٥] فسل عن فلان وادفع كتابى هذا إليه واقبض منه مالك . ثم انصرف بالجارية .

---

(١) الأكرياء : جمع كرى وهو المستأجر . (٢) الركوة : إناء الماء .
(٣) الهام : جمع هامة وهو الرأس ، وهنا اسم لطائر يألف المقابر . والشعر لكثير يرثى عبد العزيز بن مروان . وزعم بعض الرواة أن هذا الشعر لعبد الصمد بن على الهشامى يرثى ابناً له .
(٤) هكذا فى الأصل . (٥) وقد تكون البخراء .

(قال) ومضيت فلما وردت النجراء سألت عن اسم الرجل فدللت عليه فإذا داره دار ملك ، فدخلت عليه ودفعت إليه الكتاب فقبّله ووضعه على عينيه ، ودعا بعشرة آلاف دينار فدفعها إلىّ وقال : هذا كتاب أمير المؤمنين ، وقال لى : اجلس حتى أعلم أمير المؤمنين بك ، فقلت له حيث كنت فأنا عبدك وبين يديك وقد كان أمر لى بأنْزال[1] وكان بخيلاً فاغتنم ذلك فارتحلت وقد كنت أصبت بجملين وكانت عدة أجمالى خمسة عشر فصارت ثلاثة عشر .

(قال) وسأل عنّى الوليد فلم يدْر القهرمانُ أين يطلبنى فقال له الوليد: عدّة جماله خمسة عشر جملاً فاردده إلىّ فلم أوجد لأنه لم يكن فى الرفقة من معه خمسة عشرَ جملاً ، ولم يعرف اسمى فيسأل عنى .

(قال) وأقامت الجارية عنده شهرًا لا يسأل عنها ، ثم دعاها بعد أن استبرئت وأصلح من شأنها ، فظلّ معها يومه حتى إذا كانت فى آخر نهاره قال لها : غنينى لدحمان ، فغنّت وقال لها : زيدينى ، فزادت . ثم أقبلت عليه فقالت : يا أميرَ المؤمنين : أوَما سمعت غناء دحمان منه ؟قال : لا ،قالت : بلى والله ، قال : أقول لك لا ، فتقولين : بلى والله ، فقالت : بلى والله ، لقد سمعتَهُ ، قال : وما ذاك ؟ ويحك ! قالت : إن الرجل الذى اشتريتنى منه هو دحمان ، قال : أوَ ذلك هو ؟ قالت : نعم هو هو ، قال : فكيف لم أعلم ؟ قالت : غمزنى بأن لا أعلمك . فأمر فكتب إلى عامل المدينة بأن يحمل إليه دحمان فحمل فلم يزل عنده أسيرًا[2] .

---

(١) الأنزال : جمع نزل وهو العطاء .
(٢) وقد تكون أثيراً أى معززاً مكرماً (الأغانى ج ٥ ص ١٣٥ – ١٣٦ .